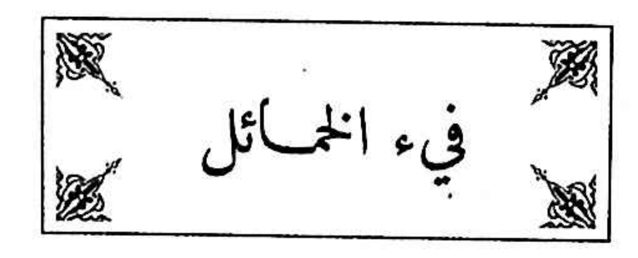
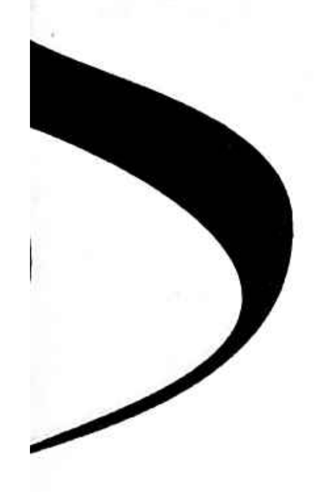


(مقالات في الأدب وعشق العربية)

د. البشير عصام المراكشي




فيء الخمائل



الطبعة الأولي
2019م / 1440هـ
تصميم الغلاف: شادي عاطف

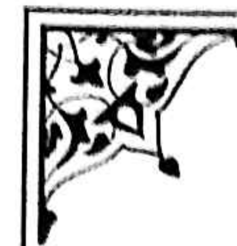
فيء الخمائل

رقم الإيداع: 30187/ 2019
عدد الصفحات: 160 صفحة
المقاس: 14× 20 سم

الكاتب: البشير عصام المراكشي



للنشر والتوزيع
العنوان الرئيسي : ١٠ شارع البيطار
خلف جامع الأزهر - القاهرة - مصر
ت: ٠١٠٠٥٢٢٦٤٠٤ / ٠١١١٤٢٢٦٤٠٤
www.al3asrya.com
info@al3asrya.com
al3asrya





فيء الخمائل

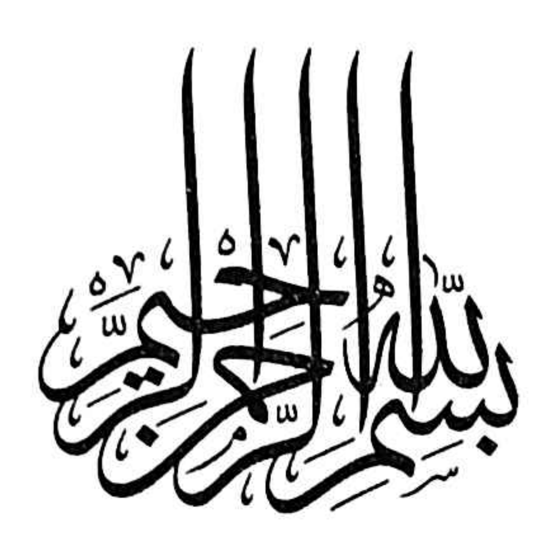
(مقالات في الأدب وعشق العربية)

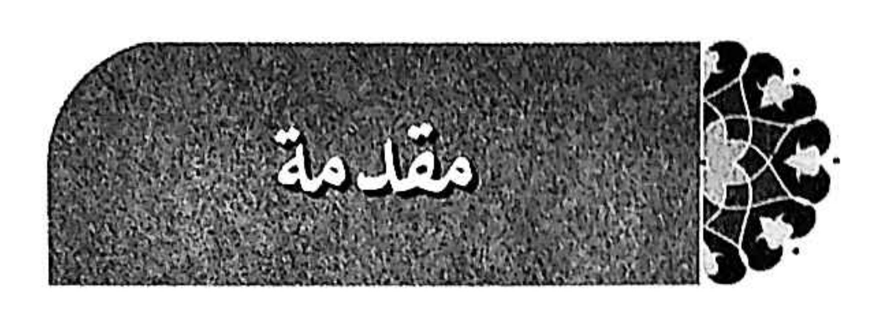
البشير عصام المراكشي








بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه.

أما بعد

فهذه مقالات معدودة، تفرّق بينهـا أوقاتُ كتابتها، وظروفُ تدبيجها؛ ويوحدها اندراجها في خانة العربية والأدب.

ومن يتابع كتاباتي، يعلم أنني قد أبتعد قليلا أو كثيرا عن هذا الموضوع، لأسـباب متباينة تفرضها هموم الواقع، وتكاليف الرسالة التي تحرك كياني كله في التعامل مع هذا الواقع؛ ولكنني سـرعان ما أفيء إليه، لأنه الموضوع الـذي امتـزج منـذ الصبا بلحمـي وعصبي، وخالط شـغاف قلبي، فلسـت أسـتطيع عنه فكاكا - ولـو حرصت -، فكيف وأنا لسـت حريصا على ذلك، لما أراه من عظيم شأنه، وبالغ أثره.

واللهَ أسأل أن ينفع بهذه الكلمات، ويكتب لي أجرها.

والحمد لله رب العالمين.

البشير عصام المراكشي

شهر الله المحرم 1440

أصول البلاغة النبوية

ربيع الأول 1428

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

أما بعد،

فقد كثرت في الأيام الأخيرة فلول الشانئين الأصاغر، المتعرضين لمقام الحبيب ﷺ، بالعيب والثلب، وهم أحق به وأهله. وقد تجمعوا بقضهم وقضيضهم، وأجلبوا بخيلهم ورَجلهم، وستروا قبيح قصدهم، بمسوح من الحرية المزعومة طورا، وحق التعبير طورا آخر، وإن هو إلا الحقد المتأججُ أواره، منه استمداد فَعالهم، وإليه مرجع أقوالهم، وعليه مدار فكرهم - إن صح أن لأمثالهم فكرا!

وقد قدح زنادَ ذاك الحقد - قديما ولا يزال - جهلٌ غُدافي الإهاب، هم فيه سادرون، قد غرقوا في غَمرته، بل عُجنوا من طينته، فهم منه في عَماية، حجبتهم عن الصواب، فلا يعرفون معروفا، ولا ينكرون منكرا.

وقد قيل قديما: (المرء عدو ما يجهل).

وإن من أعظم ما يجاهَد به هؤلاء الحاقدون المتربصون ويُجالَدون، أن تنصب أمام أعينهم الكليلة موائد العلم، بلألائها الفتان، ونورها البراق، لعلها تُفَتّق منهم تلك البصائر العشواء.

على أهل العلم في هذه الأمة الفاضلة الخيرة، أن يعرضوا على الناس، صورة ذلك الحبيب المبعوث رحمة للعالمين، فيربطوا بين الخلق وبين هاديهم ومرشدهم، بوشيجة من المعرفة الوثيقة التي تثمر محبة صادقة، تنبت من بذرتها شجرة إيمان راسخ.

ومن أراد سلوك هذا السبيل من دعاة الأمة وعلمائها - أعني سبيلَ التعريف بالحبيب ﷺ - فلَيجدنّ من القول متسعا، بل لتتشعبن به فروع القول، حتى يحتاج إلى أرسان من قواعد المنهج، يضبط بها جماح الكلام.

فإنك مهما شئت أن تلمس تجسيدَ خصلة من خصال الخير، أو صفة من صفات الكمال الإنساني، فإنك في رسول الله ﷺ واجدُها في أبهى صورها، وأكمل حالاتها.

وقد جعلت من وُكدي، أن أنهدَ إلى جانب من جوانب هذا الكمال البشري المتمثل في شخصية النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم؛ وهو جانب الفصاحة والبلاغة.

وإن الهيبة لتسطو بالنفس، وتأخذ بتلابيبها لتأطرها عن ركوب هذا البحر الغطمطم الذي يخشى الضياع في خضمه!

وإن الخشية لتتملك أرجاء الفؤاد حين يهم بسلوك هذا المهْيع الفسيح الشائك الذي لا تؤمن فيه العثرة والزلة!

وكأني بك تسأل بإنكار: أحقا تبغي بألفاظك الكليلة أن تصف أشرف الألفاظ؟

أم تُـراكَ قد زينتْ لك جراءةُ نفسـك أن تكلف يراعك الذليل من أمره شطط الكتابة عن خير ما خطه يراع؟

أم لعلـك تـروم أن تحدثنا بكلماتك عن خير كلمـات فاه بها رجل من البشر؟

ولست متكلفا لسؤالك جوابا؛ غير أنني أقول: هي المحبة جدَحت لي يدُها كأسَ النطق، فكان ما كان مما تراه منثورا بين يديك الآن.

مقدماتٌ ممهدات:

يحسُن بي - قبل الشروع في اللب المقصود بالذات ـ أن أعرف بالأثافي الثلاثـة التي يتركـب منها عنوان المقال - أي: (أصـول البلاغة النبوية) ـ إذ معرفة المركب فرع عن معرفة مفرداته.

فلأبـدأ بالثـاني من هـذه الأثـافي، ولأُثـن بالثالث، ولتكـن (الأصول) ثالثتها.

- **البلاغة والفصاحة:**

اختلفـت أقوال العلماء في تعريف هذين المصطلحين، وفي بيان الفرق بينهما[1].

والـذي استقر عليه كلام البلاغيين، أن كلا منهمـا يقع صفة لمعنيين: أولهمـا الـكلام، وثانيهمـا المتكلم. فتقول: شـعر فصيح أو بليغ، وشـاعر فصيح أو بليغ. وتختص الفصاحة بكونها صفة للمفرد فيقال: لفظة فصيحة ولا يقال لفظة بليغة.

---

(1) الكلام في هذا المبحث طويل الذيل جدا، وهو مبسوط في مظانه من كتب البلاغة.

وبعد هذا، فإن فصاحة المفرد، هي خلوصه من عيوب ثلاثة:

- تنافر الحروف: وهو وصف في الكلمة ينشأ عنه ثقلها في اللسان، وصعوبة النطق بها، كلفظة (الهعخع).

- الغرابة: بأن تكون الكلمة وحشية، غير ظاهرة الدلالة على المعنى، كلفظة جحْلَنجع، التي ذكرها أبو الهميسع في بعض رجَزه.

- مخالفة الوضع: بأن تكون الكلمة مخالفة لما ثبت عن الواضع[1]، كقول القائل (الأجلل) يريد (الأجل) ففك الإدغام مخالفا للقياس الصرفي.

وزاد بعض البلاغيين، أن تخلص اللفظة من الكراهة في السمع، كلفظ (النقاخ) بمعنى الماء العذب. وفيه نظر، لأن في ذكر الغرابة غنية عن ذكر هذا العيب، لأن استكراه السمع للفظ إنما جاء من جهة وحشيته وغرابته.

وأما فصاحة الكلام، ففي براءته من عيوب ثلاثة أيضا - وذلك بعد خلوص مفرداته من العيوب السابق ذكرها -:

- تنافر الكلمات: وهو وصف في الكلمات مجتمعة، يوجب ثقلها على اللسان، وعسر النطق بها، كقول الشاعر: (في رفع عرش الشرع مثلك يشرع).

- ضعف التأليف: وهو أن يكون الكلام مخالفا في تركيبه المشهور من

---

(1) التعبير بهذا خير من قول بعضهم: (مخالفة القياس)، وذلك ليدخل نحو (يأبي) بكسر الباء في مضارع (أبى) فهو غير فصيح، مع كونه موافقا للقياس الصرفي، وذلك لأن الثابت عن الواضع إنما هو (يأبى) بفتح الباء لا بكسرها.

قواعد النحو، كالإضمار قبل ذكر المرجع لفظا ومعنى وحكما، كما في قول الشاعر:

(ولو أن مجدا أخلد الدهر واحدا

من الناس أبقى مجده الدهر مطعما)[1].

○ التعقيد: وهو أن يكون الكلام غير ظاهر الدلالة على المعنى المراد، لخلل واقع فيه. وهو نوعان: لفظي ومعنوي. فالأول كقول الشاعر:

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

والثاني كقول العباس بن الأحنف:

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموع لتجمدا.

وقد اشترط بعض العلماء في فصاحة الكلام، خلوصه من كثرة التكرار وتتابع الإضافات. وليس الأمر على إطلاقه، فقد يوجد من ذلك في الكلام الفصيح، بل في أفصحه، كما في قوله تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾، وفي قول النبي ﷺ الثابت في الصحيح: (الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم). والمرجع في هذا إنما هو إلى ثقل اللفظ أو خفته على اللسان.

هذا ملخص ما ذكره البلاغيون في هذا المبحث.

---

(1) الشاهد فيه أن الضمير في ((مجده) راجع إلى (مطعم)، وهو لم يذكر قبل الضمير لفظا، وهو ظاهر، ولا معنى لأنه مفعول به، فمرتبته التأخير، ولا حكما لأنه محكوم عليه بالتأخر لمفعوليته.

لكـن العمدة - عند التحقيـق - إنما هي على لحظ تصرفات البلغاء في خطبهم ورسائلهم وقصائدهم، لا على هذه الضوابط الرياضية الصارمة؛ إذ الضوابط عصا الأعمى - فيما قيل[1].

وقـد كان العرب الأقحاح في الأعصار المتقدمة يرسـلون الكلام على سـجيتهم، فيجيء منه كلام بليغ تارة، وأقل بلاغة تارة أخرى. وكان الذوق العربي سـليما من عوارض الهجنة، وآثار العجمـة. فكان الاعتماد عليه في تمييز البليغ الفصيح من غيره.

ثـم جاء مـن بعدهم فقعّـدوا وأصلـوا، وكان في ذلك خيـر كثير. لكن بالـغ المتأخرون في تتبع القواعد النظرية، والجمود على القوانين الجاهزة، وأهملوا التطبيق العملي، وإعمال الذوق اللساني البليغ.

فلتكـن نظرتنا إذن - في هـذا البحث - نابعة من هـذا الأصل الذوقي، ولنكـن من القواعد على ذُكر، نتطلبها عند الحاجة إليها، حين يخوننا ذوقنا الهائم في سباسب العُجمة.

- موضوع البحث:

موضـوع الـكلام هـو الأحاديـث القوليـة الصحيحـة المرفوعـة إلى رسول الله ﷺ.

فـلا يدخـل في مبحثنا حديث فعلي، ولا تقريـري، ولا حديث في صفة الحبيب ﷺ. والأمر في هذا أظهر من أن يحتاج إلى بيان.

---

(1) ذكر ذلك الكشميري في (فيض الباري) (4/ 415).

ولا يدخل حديث في رفعه إلى رسول الله ﷺ تردد أو شك. وهذا حال الأحاديث المعلولة التي تجاذبها حالا رفع ووقف[1].

ولا يدخل كذلك حديث غير صالح للاحتجاج، لكونه ضعيفا أو موضوعا أو نحوهما.

بل أزيد فأقول: لا ينبغي أن تدخل في بحثنا هذا الأحاديث المختلف في صحتها بين الحفاظ. لأن المقامَ مقامُ تأصيل وتقعيد، وهو لا يناسب مراتب الظنون، وإنما يحتاج إلى ثلج اليقين.

وهذا الاحتراز الثالث عظيم الخطر، سامق الشأن. لكن أغلب المتكلمين في هذا الباب معرضون عنه في التطبيق، مع كونهم مجمعين على صحته عند التنظير.

ولعل السبب في ذلك، تجاذب الاختصاصات العلمية. وذلك أن الباحثين في أبواب البلاغة عموما - والنبوية منها خصوصا - هم من أرباب اللغة والبيان، وليسوا من المحدثين والحفاظ.

ولذلك كثر عندهم الاستدلال بالأحاديث التي لا تصلح للاستدلال، لفقدها ركن الثبوت، وهو الأساس الذي يبنى عليه الاحتجاج.

وقد يكون لهذا المأخذ - أي: ضرورة التأكد من ثبوت الأحاديث النبوية قبل الاستنباط منها - علاقة بإحجام جمع من العلماء عن الخوض في هذا الفن الرفيع.

---

(1) والفيصل في مثل هذا حكم أئمة العلل، وجهابذة النقاد. وليس المرجع إلى قواعد نظرية مقررة، لا يسعفها شفوف في النظر، وتمكن في الاطلاع، وجلادة في البحث.

ولما كان القرآن قطعي الثبوت، تكلموا في إعجازه البلاغي، فأطابوا وأطنبوا. بل ما خرج علم البلاغة إلا من رحم الإعجاز القرآني[1]. أما الكلام على البلاغة في الحديث النبوي، فلم يرق إلى نفس المرتبة ولا إلى قريب منها.

على أن الفرق بين البلاغة النبوية والإعجاز القرآني ثابت ظاهر لا سبيل إلى طمسه. وهو ذاتُه الفرق بين المعجز وغير المعجز، والفاصل بين كلام الخالق وكلام المخلوق. وذلك أن كلام النبي الكريم ﷺ مهما ارتقى في درجات البلاغة، وتسامى إلى سماء الفصاحة، يبقى كلاما بشريا، تلفه مسحة الإنسانية، وتغلفه سرابيل الفناء البشري.

أما القرآن الكريم، فلا تجد فيه حين تتذوق ألفاظه، وتتدبر معانيه، شيئا من حالات النفس الإنسانية، أو أثرا من تقلباتها. ولذلك تقف أمامه عاجزا متحيرا، تشعر بذل المخلوق وضعفه أمام عظمة الخالق سبحانه.

ولذلك قال الجاحظ:

(.. لأن رجلاً من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة، طويلة أو قصيرة، لتبين له في نظامها ومخرجها، وفي لفظها وطبعها، أنه عاجز عن مثلها. ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها. وليس ذلك في الحرف والحرفين، والكلمة والكلمتين.

ألا ترى أن الناس قد كان يتهيأ في طبائعهم، ويجري على ألسنتهم

---

(1) وكان أس ذلك ما صنعه عبد القاهر الجرجاني في كتابيه الرائقين: (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز).

أن يقول رجل منهم: الحمد لله، وإنا لله، وعلى الله توكلنا، وربنا الله، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وهذا كله في القرآن، غير أنه متفرق غير مجتمع؛ ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة، طويلة أو قصيرة، على نظم القرآن وطبعه، وتأليفه ومخرجه لما قدر عليه، ولو استعان بجميع قحطان ومعد بن عدنان)[1].

وفي معنى هذا قول الله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[2].

وهذا لب الإعجاز البلاغي القرآني، الذي لا مطمع لأبلغ البلغاء في متابعته فضلا عن مجاراته. ومَن تجشم عناء معارضته من أهل الشقاق، ما زاد على أن فضح نفسه، وأتى بما جعله هزؤا أبد الدهر[3]. أما كلام النبي ﷺ فإنه ـ على بلوغه أعلى مراتب الفصاحة ـ فيه من آثار النفس الإنسانية ما يجعل البلغاء يطمعون في محاكاته، لما يلمسونه من الصلة البشرية بينهم وبينه.

وأمر آخر له تأثير في هذا التفريق بين القرآن الكريم والبلاغة النبوية، وهو مسألة الرواية بالمعنى في الحديث. وهي مسألة عظيمة الشأن جدا، جديرة بأن تخصص لها وقفة يسيرة، تجلو غوامضها.

---

(1) رسائل الجاحظ الكلامية: 130-131.

(2) سورة الإسراء 88.

(3) كما ذكروا عن مسيلمة الكذاب، وأضرابه.

وجماع الأمر فيها، أن الرواية بالمعنى ثابتة في طائفة من الأحاديث النبوية، حتى قال الثوري: (إن قلت لكم إني أحدثكم كما سمعت فلا تصدقوني، إنما هو المعنى). لكن، لا يكون ذلك مانعا في الاستدلال بالحديث على الأصول العامة للبلاغة النبوية، وذلك للأوجه التالية:

الوجه الأول: أن الأصل عند المحدثين الاعتناء بضبط ألفاظ الحديث، ومنهم من كان يتشدد في ذلك - على ما هو مقرر. فالرواية بالمعنى أمر عارض لا ينبغي أن يسوى بالأصل الثابت. يؤكده

الوجه الثاني: وهو أن من قال من الحفاظ بجواز النقل بالمعنى، إنما قاله من باب التجويز العقلي، الذي لا يتنافى - في الغالب - مع وقوع عكسه. فالغالب على الظن أن الألفاظ الأصلية للنبي ﷺ لم يطرأ عليها تبديل البتة، أو لم يساورها غير شيء من التبديل يسير.

الوجه الثالث: أن الرواية بالمعنى - على فرض كونها محل اتفاق - لا تعم كافة أصناف الحديث. وإنما الغالب وقوعها في الأحاديث الطويلة. أما الأحاديث القصار، أو حِكم النبي ﷺ وأمثاله، ونحو ذلك، فإن الرواة يحافظون على نصها، ولا يعدلون عنه، لانعدام الحاجة إلى ذلك.

الوجه الرابع: أن التبديل الواقع في الحديث بسبب الرواية بالمعنى، إنما يكون في اللفظة الواحدة بعد اللفظة، أو في بعض دقائق التركيب، مع بقاء الهيكل العام للحديث، وهو - في الأعم الأغلب - موضع حكم الذوق بالبلاغة.

الوجه الخامس: أن للمحدثين - خاصة منهم أهل العلل - طرقا خاصة

يجمعـون بها روايـات الحديث الواحد، فيظهر مـن جمعها إن وقع في نص الحديث تصرف من الرواة أم لا. ثم إن كان الحديث مما اختلفت فيه ألفاظ رواته، من غير سبيل للترجيح بينها، فالمتعينُ تنكبُه في مبحثنا هذا.

الوجه السـادس: أن الشـك المتطرق إلى بعض الأحاديث بسبب من احتمـال الرواية بالمعنـى، لا ينفي صحة الأصول العامـة المأخوذة بطريق الاستفاضة والتواتر، من مجموع الأحاديث النبوية.

وفي الجملـة، فإن هذه المسـألة - وإن صح عدّها سـببا في تأخر بحث البلاغة النبوية مقارنة ببلاغة القرآن الكريم - لا ينبغي أن تصرف الباحث في الموضوع عن مراده.

- خطوة نحو التأصيل:

ليـس المراد في هذا البحث أن يجمـع كلام النبي ﷺ في صعيد واحد، ويسـتخرج ما فيه من أفانيـن البلاغة، وضروب الفصاحـة. فذاك مقصد لا مطمع في إدراك عشـر معشاره. وقد قارب بعضَه جمع من شراح الحديث، فأجادوا وأحسنوا.

وإنما المراد وضـع بعض الأصول العامة، والضوابط الإجمالية، التي تعيـن على فهم هذا الـكلام البليغ، وتذوق حلاوتـه. وأعظِم به من مقصد جليل!

وقد مضى آنفا ذكر بعض ألوان التأصيل، ويأتي من ذلك فنون أخرى - بإذنه تعالى.

برهان البلاغة النبوية:

وإذ وصل بنا الكلام إلى هذا الموضع، فلرُب متكئ على أريكته، منجدل في طينة غفلته، يحك عينيه ليطرد عنهما سمادير الوسَن، ثم يقول: قد حدثتنا طويلا عن هذه البلاغة النبوية، حتى لكأنها عندك من المسلمات؛ أفَتُرانا نسلم برأيك لمحض قولك؟

وجوابي عن هذا - بعد أن أردد مع أبي الطيب قوله المأثور:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

من أوجه تأتيك فيما يلي:

أولها: أن النبي ﷺ قد أخبر عن نفسه بذلك، فقال (بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدِي)[1].

قَالَ الزهري[2]: (وَبَلَغَنِي أَنَّ جَوَامِعَ الْكَلِمِ أَنَّ اللهَ يَجْمَعُ الْأُمُورَ الْكَثِيرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُكْتَبُ فِي الْكُتُبِ قَبْلَهُ فِي الْأَمْرِ الْوَاحِدِ وَالْأَمْرَيْنِ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ).

وهل هذه البراعة في الجمع، والإعجاز في الإيجاز، وقلة اللفظ مع كثرة المعاني، إلا قمة ما تكون عليه بلاغة الكلام؟

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم.

(2) فيما رجحه الحافظ ابن حجر في فتح الباري، وقال غيره: القائلُ البخاري نفسه. وقد حمل بعض العلماء هذا الحديث على القرآن الكريم، وآخرون على كلام النبي صلى الله عليه وسلم. قال البيهقي في الشعب (3/ 38): (وكلاهما محتمل).

ولست أستدل في هذا المقام، ببعض الأحاديث التي يذكرها المتكلمون في هذا الباب، مع كونها لا تصح من جهة الإسناد.

ومن ذلك:

- ما جاء عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ في يوم دجن: (كيف ترون بواسقها؟). قالوا: ما أحسنها، وأشد تزاحمها. قال: (كيف ترون قواعدها؟). قالوا: ما أحسنها وأشد تمكنها. قال: (كيف ترون جونها؟). قالوا: ما أحسنه، وأشد سواده. قال: (كيف ترون رحاها استدارت؟). قالوا: نعم، ما أحسنها وأشد استدارتها. قال: (كيف ترون برقها؟، أخفوا، أو وميضا؟ أم يشق شقا؟). قالوا: يا رسول الله، بل يشق شقا. فقال رسول الله ﷺ: (الحيا). فقال له رجل: يا رسول الله ما أفصحك، ما رأينا الذي هو أعرب منك، قال النبي ﷺ: (حق لي، وإنما أنزل القرآن علي بلسان عربي مبين؟)[1].

- ما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: (أنا أفصح من نطق بالضاد، بيد أني من قريش)[2].

- وما جاء من حديث أبي سعيد مرفوعا، قال: (أنا النبي لا كذب، أنا ابن

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (3/ 33)، والرامهرمزي في الأمثال (247)، وفي إسناده موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي، منكر الحديث - كما في التقريب - مع كونه مرسلا. وراجع في الشعب وفي شروح شفا عياض معاني ما فيه من الغريب.

(2) ذكره العجلوني في كشف الخفا (1/ 232)، قال السيوطي: (معناه صحيح ولكن لا أصل له، كما قال ابن كثير وغيره من الحفاظ، وأورده أصحاب الغريب ولا يعرف له إسناد ..).

عبد المطلب، أنا أعرب العرب، ولدتني قريش، ونشأتُ في بني سعد ابن بكر، فأنى يأتيني اللحنُ)[1].

- ومثله ما جاء أن النبي ﷺ أجاب بعض خطباء الوفود بكلام عذب فصيح، فقال له علي رضي الله عنه: (يا رسول الله نحن وأنت بنو أب واحد ونشأنا في بلد واحد، وإنك تكلم العرب بلسان ما يفهم أكثره. فقال: (إن الله عز وجل أدبني فأحسن تأديبي، ونشأت في بني سعد بن بكر)[2].

ومن هذه البابة أحاديث أخرى تركت ذكرها اختصارا.

والوجه الثاني: أن الصحابة الذين وصفوا منطقه عليه الصلاة والسلام، شهدوا له - وهم سادات الفصحاء، ومن معدن البلاغة والأدب - بتقدمه في هذا المضمار، بحيث لا يلحق غباره، ولا يدرك شأوُه.

من ذلك ما أخرجه النسائي والبيهقي عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: (كان النبي ﷺ لا يسرد الكلام كسردكم هذا، كان كلامه فصلا يبينه يحفظه كل من سمعه).

وقد جاء بسند ضعيف من حديث هند بن أبي هالة في صفة النبي ﷺ، قال: (كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، طويل الفكرة، ليس له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتح كلامه ويختمه بأشداقه. يتكلم

---

(1) رواه الطبراني في الكبير، وفي إسناده مبشر بن عبيد، وهو متروك. راجع تلخيص الحبير (4/ 10).

(2) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (لا يعرف له إسناد ثابت) - أحاديث القصاص (78). وذكره العجلوني في كشف الخفا ()، والشوكاني في الفوائد المجموعة (1020).

بجوامع الكلم، فصل لا فضول ولا تقصير، دمث ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة، وإن دقت، لا يذم منها شيئا، لا يذم ذواقا ولا يمدحه)[1].

والوجه الثالث: أن أكابر البلغاء أذعنوا للفصاحة النبوية، وجعلوها تاجا على رأس العربية، يشع نور لألئها على أرجاء الكلام العربي كله.

بل تخذوا كلام النبي ﷺ معينا ثرا يمتحون منه في مكاتباتهم ومخاطباتهم.

والأمر في شرح هذا وتفصيله يطول جدا.

فلأجتزئ بذكر كلام الأديب البليغ، مقدم أهل الصنعة، عمرو بن بحر الجاحظ في (البيان والتبيين)[2]، حين يقول:

(وأنا ذاكرٌ بعد هذا فَنّاً آخرَ من كلامه ﷺ، وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجَلَّ عن الصَّنعة، ونُزِّه عن التكلف، وكان كما قال الله ﷻ: قل يا محمد: «وما أنا مِنَ المتكلِّفين»، فكيف وقد عابَ التشديق، وجانب أصحاب التقعيب، واستعمل المبسوطَ في موضع البسط، والمقصورَ في موضع القصر، وهَجَر الغريبَ الوحشيَّ، ورغِبَ عن الهجين السُّوقيّ، فلم ينطِقْ إلا عن مِيراثِ حكمَةٍ، ولم يتكلَّم إلا بكلامٍ قد حُفَّ بالعصمة، وشُيِّد بالتأييد، ويُسِّرَ بالتوفيق. وهو الكلامُ الذي ألقَى الله عليه المحبّةَ، وغشَّاهُ بالقَبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبَيْن حُسنِ

---

(1) أخرجه الترمذي في الشمائل (13-16) والبيهقي في الشعب (3/ 24-32).

(2) أو قل: (البيان والتبين) كما مال إليه العلامة المحقق عبد السلام هارون عليه رحمة الله.

الإفهام، وقلّة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقِلّةِ حاجة السامع إلى معاوَدته. لم تسقط له كلمة، ولا زَلّت به قَدَم، ولا بارَتْ له حجَّة، ولم يَقُم لـه خَصـم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذُّ الخُطَبَ الطِّـوال بالكلِم القِصار ولا يَلتمِس إسكاتَ الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتجُّ إلا بالصِّدق ولا يطلب الفَلْج إلا بالحق، ولا يستعين بالخِلابة، ولا يستعمل الموارَبة، ولا يهمِز ولا يَلْمِز، ولا يُبْطِيءُ ولا يَعْجَل، ولا يُسْهِب ولا يَحْصَر، ثم لم يَسْمع النـاسُ بـكلامٍ قَطّ أعمَّ نفعـاً، ولا أقصَدَ لفظـاً، ولا أعدلَ وزنـاً، ولا أجملَ مذهبـاً، ولا أكرَم مطلبـاً، ولا أحسنَ موقعـاً، ولا أسهل مخرجـاً، ولا أفصح معنًى، ولا أبين في فحوَى، من كلامه ﷺ كثيراً)[1].

ثم قال:

(قال محمَّد بن سـلام: قـال يونس بن حبيب: (ما جاءنـا عن أحدٍ من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله ﷺ).

.. ولعـلّ بعضَ من يتَّسِـع في العلم، ولـم يعرفْ مقاديـرَ الكَلِم، يظُنّ أنّا قد تكلّفنا له من الامتداح والتشريف، ومن التزيين والتجويد ما ليس عنده، ولا يبلُغـه قدْرُه، كَلاً والذي حَـرَّمَ التزيُّدَ على العلمـاء، وقبَّح التكلّف عند الحكماء، وبَهْرَجَ الكذّابين عند الفقهاء، لا يظنّ هذا إلا من ضلَّ سعيُه)[2].

والوجـه الرابـع: أن رسـول الله ﷺ أقامـه الله تعالى في موضـع البيان لكتاب الله ﷻ، وذلك إنما يناسب أعلى درجات البلاغة. قال الحليمي رحمه الله

---

(1) البيان والتبيين: 2/ 13-14.

(2) البيان والتبيين: 2/ 14.

في الكلام على بيان النبي ﷺ وفصاحته: (ولو لم يكن على ذلك دلالة سوى أن الله نصبه منصب البيان لكتابه، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ لكان كافيا، فإنه لو لم يكن آتاه البيان، ولم يرقه فيه إلى أعلى الدرجات، لما رضيه لتبيين كتابه، والكشف عن معاني خطابه)[1].

والوجه الخامس: أن العرب الخلص الذين عاش النبي ﷺ بينهم، وبث دعوته بين ظهرانيهم، لو علموا في فصاحته ما يعاب، أو ما يخالف أصول البيان والإعراب، لتعلقوا به، وبثوا ذلك في مجالسهم، واتخذوه سبة يتندرون بها في نواديهم؛ ولردوا عليه دعوته بسبب من ذلك، لأنهم من العرب الأقحاح الذين لا يستجيبون إلا لأفصحهم لسانا، وأظهرهم بيانا[2].

فلما لم يوجد من ذلك شيء، ولو أقل من القليل، مع توفر الداعي، وقوة المقتضي، علمنا أنه ﷺ كان أفصح العرب قاطبة، لا يخالج النفس في ذلك أدنى شك أو شبهة.

والوجه السادس: وهو الذي ينبغي أن يكون قبل الوجوه السابقة كلها، وينبغي أن يكون بعدها كذلك. وهي بينة إثبات أَكِل أمر الشهادة بها للذوق العربي السليم.

إن القارئ لأحاديث النبي ﷺ يجد من حلاوتها في نفسه، ما تصغر

(1) نقله البيهقي في شعب الإيمان: (3/ 32).

(2) تاريخ آداب العرب للرافعي: 2/ 228.

معه كل حلاوة أدركها طول عمره؛ ومِن نورها في قلبه، ما تنشـرح له أرجاء صدره.

ومهمـا زدت من القـراءة، وأكثرت من النظر في تلك الأحاديث، فإنك لن تجد في ذهنك ذرة من الملل أو السـآمة، وإنما هو نور آخذ بحجزة نور، وضياء يتلوه ضياء.

ولن تجد ـ في غير القرآن والحديث ـ هذه الخاصية العجيبة في شيء من الكلام، كائنا من كان مبدعه.

سر البلاغة النبوية:

وإذ قـد برهنا على بلوغ الـكلام النبوي أعلى مراتب الفصاحة، فلنا أن نسأل عن سر هذه البلاغة النبوية؟

والحـق، أن النبـي ﷺ قـد اجتمعـت فيه خـلال كثيرة، ثقّفت لسـانه، وزينت بيانه، وجعلته تاج الفصحاء، وسيد البلغاء.

- وأول هـذه الخلال نسـبه الكريم. فإن قبيلتَه قريشـا كانوا أفصح العرب لسانا، وأرقهم لفظا، وأبعدهم عن تلك اللهجات الرديئة التـي وصمت غيرهم مـن قبائل العرب[1]. وقد نشـأ النبي عليه السلام في بني سـعد بن بكـر[2]، وهم من أكرم العـرب وأفصحهم، مع

(1) في الكامل والعقد الفريد وغيرها من كتب الأدب: (قال مُعاوية يوماً لجلسائه: أيّ الناس أفصح؟ فقال رجلٌ من السِّماط: يا أميرَ المؤمنين، قوم قد ارتفعوا عن فراتية العراق، وتياسَرُوا عن كَشْكشة بكر، وتيامَنُوا عن: شَنْشَنة تَغْلب، ليس فيهم غَمْغمة قُضاعة، ولا طمطمانيّة حِمْير. قال: مَن هم؟ قال: قومُك يا أميرَ المؤمنين قُريش).

(2) وقد ورد هذا المعنى في حديث سبق ذكره، لكنه غير ثابت.

كونهم أهل بداوة رقيقة الحواشي، ليس فيها من جلافة الأعراب ما يكدر صفوها.

وقد كانت حليمة السعدية من أوسطهم؛ والرضاع مؤثر في الطباع، كما قـد قيل[1]. ولم يختلط ﷺ طول حياته الشريفة بقوم خارجين عن حدود رفعة البيان.

وإذ قـد اجتمـع له ﷺ أفضل ما ينشـأ في كنفه فصيح قـط، فلا جرم أن اعتلى سماك البيان اللغوي، وأتى منه بأفضل ما يطيقه إنسان.

- وثانيهـا قلبـه النقـي التقي، المتجـذر في الصفـاء، والمتغلغل في الطهـر. وهـو قلـب متصل بـالله ﷻ، ينبـض بأشـرف المعاني، وأزكـى الفكَـر، فـلا يزال يبعثها أرسـالا بهيـة، إلى ذاك اللسـان الفصيح، ليترجمها كلاما منمقا بديعا.
- وثالثها عقل ذكي متوقـد، وذهن حاد متوهج، وبصيرة نفاذة إلى بواطـن الأمور. فلا يمـر على خاطره إلا معنـى جليل قد امتلك ناصية الصحة، وترفع عن سفساف الأفكار.
- ورابعها لسـان صقلتـه روائع البيـان القرآني، فصـار ذربا بأنصع الألفـاظ، وأرشـق التراكيـب، وأحكـم المعاني. وأعظِم بلسـان يُـدارس جبريـل ﷺ عجائـب آيـات التنزيـل، ونفائـس القرآن الكريم.
- والخامس تأييد إلهي محكـم، يعصمه من العيوب التي لا يخلو

(1) راجع نسيم الرياض للخفاجي (2/ 131).

من الوقوع فيها غيره من الفصحاء. فتجد كلامه متناسقا في سموه، متوازيا في عليائه، لا ينزل في لحظة ما عن أعالي رتب البيان. وهذا لا يكون إلا بمدد من الوحي.

ولذلك صح أن أزعم بثقة وثبات، أن البلاغة النبوية - رغم قصورها عن درجة الإعجاز القرآني - ليست متمحضة في الإنسانية، بل هي قبس من الوحي الإلهي.

أصول البلاغة النبوية:

ذكرت فيما سبق من الكلام، مباحث نافعة، قاربتُ فيها شيئا من التأصيل المجمل لفن البلاغة النبوية، وذلك بقدر ما تتسع له صفحات هذا المقال المختصر.

وأنا الآن ساردٌ لك، جُملا من الأصول والأركان، يقوم عليها صرح البلاغة النبوية. ولست أزعم لنفسي أنني محيط بتلك الأصول إحصاء وعَدا، ولا أنني مستوف بحث ما سأذكره منها. ولكن حسبي من الدلالة ما أبان أوائل الطرُق، ويكفيني من در القلادة ما أحاط بالعنق.

1- القصد والإيجاز:

ومعناه أن تجتمع المعاني الكثيرة المقصودة من الكلام في الألفاظ القليلة، التي تقل عن العدد المتعارف عليه بين الناس في عادات خطابهم.

وهو من معنى قوله ﷺ: (بعثت بجوامع الكلم)، وقد سبق إيراده.

وقد سلم كلام رسول الله ﷺ - بهذا القصد والإيجاز - من الانتشار

المفضي إلى العي والخطل، ومن الإطناب المؤدي بالسامع إلى السآمة والملل.

وإنك مهما قلّبت وجوه النظر في كلام البلغاء في تصاريف كلامهم، فلن تجد فيهم من يسلم من اللجإ إلى فنون من الإطناب والإطالة، وتشقيق الكلام، يستعين بها على بسط ما يبثه من المعنى.

ولن تجد في كلام النبي ﷺ من ذلك شيئا. وإنما هو القصد الذي يحير الألباب، ويبهر العقول.

وتأمل قوله عليه السلام، على سبيل المثال: (إنما الأعمال بالنيات)[1]. ستجد في هذه الكلمات الثلاثة المختصرة في هذا التركيب اللطيف، ألوانا من العلوم، وأصنافا من المعاني[2]، يحار أهل الفهوم في استنباطها.

ومثله في الوجازة والجمع، أحاديث أخرى كثيرة، منها قوله عليه السلام:

- الدين النصيحة[3].
- الحلال بين، والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات.
- إنما الصبر عند الصدمة الأولى.
- المرء مع من أحب.

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

(2) تجدها منثورة في كتب شروح الحديث، وقد جمع السيوطي شيئا منها في كتاب: (منتهى الآمال بشرح حديث إنما الأعمال).

(3) أخرجه مسلم وغيره.

- الناس معادن.
- الظلم ظلمات يوم القيامة[1].

وغيرها من مثل هذه الأحاديث القصار التي تخرج مخرج الحكمة الشاردة، والمثل السائر، والقاعدة العامة الشاملة لما لا يحصى من المفردات، كثير جدا في دواوين السنة النبوية[2].

2- استيفاء المعنى:

وإذا كان الإيجاز مطلبا بلاغيا ساميا، فإن تقصده كثيرا ما يفضي بأرباب الأدب والفصاحة، إلى لون من النقص والاضطراب، يخرج به الكلام سقيما مخَدجا.

وأما في كلام سيد الفصحاء - ﷺ - فإن الإيجاز ليس مخلا بالمعنى، وإنما هو ضرب من البراعة اللفظية، يكتمل رُواؤه باستيفاء المعنى المراد، حتى يخرج الكلام حسن التركيب والمظهر، تام المضمون والمخبر.

وهذا أصل عظيم جدا، هو لب البيان النبوي، المعصوم من التقصير في الهداية والإرشاد. ولولاه لما كانت السنة النبوية الشريفة بهذه المثابة في تقرير الشرائع، وتحرير القواعد، ووضع الأصول والضوابط.

ومن المثال على ذلك:

- قول النبي ﷺ في تعريف الإحسان: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن

---

(1) الأحاديث الخمسة السابقة ثابتة عند الشيخين، وغيرهما.

(2) لكن قد يرد على بعضها شيء مما ذكرنا آنفا من قضيتي الثبوت، والرواية بالمعنى. ولذلك لم أذكر منها إلا ما سلم منهما.

تراه فإنه يراك)[1]. وأنت لو شئت أن تبدل في هذه الكلمات المتناسقة، بزيادة أو نقص، لتكميل المعنى أو بسطه، لما تأتى لك ذلك إلا بحيث تخرج من حدود البيان العربي البليغ، إلى نوع من الثرثرة الممقوتة. فالمعنى - كما ترى - كامل منسجم، واللفظ ناصع منورق، مستو في فصاحته، لا عوج فيه ولا أمت.

- وقوله ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)[2]: تأصيل عظيم لباب من أبواب الشرع جليل. ولست ترى فيه - على وجازته وحذف فضوله - نقصا في المعنى المقصود.

وفي الأدعية المأثورة عن رسول الله ﷺ من الأمثلة على هذا الأصل، الشيء الكثير. وأنا مكتف - على رغبة مني في البسط جامحة - باستعاذته ﷺ من العجز والكسل، والجبن والهرم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات[3].

قال ابن القيم:

(فجمع هذا الحديث الشريف في استعاذته ﷺ أصول الشر وفروعه ومباديه وغاياته وموارده ومصادره وهو مشتمل على ثمان خصال كل خصلتين منها قرينتان)[4].

وقس على هذا الدعاء غيره، فتدبره وأنعم النظر فيه، تر عجبا.

---

(1) أخرجه الشيخان.

(2) أخرجه مسلم وغيره.

(3) أخرجه البخاري ومسلم.

(4) راجع تمام كلامه في زاد المعاد: (2/ 325).

3- نصاعة الألفاظ:

ألفاظُ الحديث النبوي واضحة لكل أحد، خالصة من كل بشاعة، مبرأة من كل عيب وهجنة. اجتمع فيها ما أوردناه آنفا من شروط الفصاحة في المفرد، وزادت على ذلك، حتى استوت على عرش البيان، وتبوأت من البلاغة المحل الأسمى.

ولا يشكل على ما قررنا، بعض ما يورده أهل الغريب من الألفاظ الوحشية المستعصية على الفهم، وذلك لأن كثيرا من هذه الألفاظ لم تصح نسبتها إلى النبي ﷺ، وإنما وردت في الأحاديث المرفوعة المروية في كتب السنة بالإسناد، فتتبعها أهل الغريب بالشرح البيان، ولم يتكلفوا عناء التثبت من صحتها، إذ لم يكن ذلك من مرامهم.

وقسم آخر من هذه الألفاظ الصعبة، تكلم النبي ﷺ بها، بسبب من اختلاف أحوال المخاطبين. فقد كان منهم أعراب موغلون في البداوة، وأصحاب منعمون في رقة الحضارة، وكان منهم ملوك وسوقة، وصغار وكبار، ونساء ورجال. فخاطب كل طائفة من هؤلاء بما يوافق حاله.

وهل البلاغة إلا مراعاة حال المخاطَب، لتحصل أعلى درجات الإفهام؟

لكنه ﷺ لم يخرج قط عن انتقاء الحر من اللفظ، الذي يتقبله السمع، ويستسيغه الذوق.

وتأمل في هذا الباب قوله ﷺ: (المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم)[1].

---

(1) حديث صحيح أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما.

ألست تجد وقع هذه الألفاظ وهي تدغدغ سمعك، وتلامس شغاف قلبك، مع إيغالها برفق في وضوح المعنى، وسلاسة التركيب؟.

4- موافقة مراد المخاطب:

ويسوقنا الكلام في الأصل السابق سوقا حثيثا، فيسلمنا إلى عرض أصل آخر عظيم الخطر، وهو أن الكلام النبوي كان يتأقلم مع أحوال المخاطبين به، مع الاحتفاظ بالأصول الثابتة الأخرى.

فهو إذ يخاطب ملكا من ملوك الأرض، تجده يقول: (سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام: أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين)(1).

وحين يخاطب بعض أطفال المسلمين يقول: (يا أبا عمير ما فعل النغير)(2).

فتدبر ما في الحديث الأول من الفخامة والجزالة، حتى لكأن كلماته صواعق منزلة، تقرع رأس عظيم الروم؛ وما في ألفاظ الحديث الثاني من الرقة والحنان، حتى لكأنها تطرب فؤادك بعذوبتها.

هذا، وقد ذكر بعض الأفاضل في هذا الباب، كتاب النبي ﷺ لوائل بن حجر: (إلى الأقيال العباهلة، والأرواع المشابيب، الحديث)، وكتابه إلى همدان: (إن لكم فراعها ووهاطها وعزازها، الحديث)، وقوله لبني نهد: (اللهم بارك لهم في محضها ومخضها ومذقها، الحديث)، ونحو ذلك.

(1) أخرجه البخاري ومسلم.

(2) أخرجه الشيخان.

وقد ضربت صفحا عن ذكر هذه الكتب والأحاديث، لأنها لا تصح من جهة الإسناد[1].

5- عدم التكلف:

وهذا الأصل متفرع عن مراعاة النبي ﷺ بكلامه البيان للنص القرآني، والإرشاد إلى خيري الدنيا والآخرة. وهذان الأمران لا يجتمعان مع التشدق والتفاصح.

ولذلك لا يوجد في كلامه ﷺ شيء من الصناعة اللفظية المتكلفة، وإنما كان يتكلم عن روية وسلاسة طبع.

وحتى ما جاء في حديثه من السجع، فهو سجع بالغ السلاسة والعذوبة، ليس فيه خشونة الصناعة، بل ينسج على منوال الفواصل القرآنية، ويهتدي بضيائها، مع الفرق بين الكلامين كما سبق بيانه.

6- الخلوص من العيوب البلاغية:

كلامه ﷺ مبرأ من الهنات البيانية التي لا يكاد يسلم منها متكلم. وإنك مهما استطعت، فلن تستطيع أن تجد في كلامه هجنة أو ضعفا؛ ومهما قدرت، فلن تقدر على أن تستخرج منه ركاكة أو إسفافا.

وقد ترفّع كلام النبي ﷺ عن جفاء البداوة وغلظتها، وعن ضعف الحضارة وركاكتها. مع كونه أمسك من الأولى بأزمة جزالتها وفصاحتها، وغشي من الثانية بسرابيل رقتها وسجاحتها.

---

(1) راجع تخريجها في التعليقات على كتاب الشفا للقاضي عياض، كمناهل الصفا للسيوطي مثلا.

فجاء كلاما جزلا في رقة، ومتينا في عذوبة، وقويا في لطف وبهاء.

7- السبق إلى بعض التراكيب:

وإذا كان النبي ﷺ من البيان والفصاحة بهذا المحل الأسمى، الذي وصفته لك فيما سبق من الكلام، فليس بمستبعد أن يسبق أرباب البلاغة إلى تعبيرات لم يجارَ فيها، ولا تهيأ لغيره أن يحاكيها.

فمما تفرد بالسبق إليه:

- قوله ﷺ: (حمي الوطيس)[1]، أي: اشتدت الحرب.
- وقوله ﷺ: (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)[2].
- وقوله أيضا: (الحرب خدعة)[3].

وقد أفرد الخفاجي هذا الباب بالتأليف، على ما ذكر في شرح الشفا.

فهذا التفرد والسبق، مساهمة من النبي ﷺ في الوضع اللغوي، بشقيه الإفرادي والتركيبي، وبلونيه الحقيقي والمجازي.

ومن أحق بذلك من سيد الفصحاء - بأبي هو وأمي - ﷺ؟

وبعد، فهذا جهد المقل في وصف هذه البلاغة النبوية التي بذت فصحاء العرب!

---

(1) أخرجه مسلم.

(2) أخرجه البخاري ومسلم.

(3) أخرجه الشيخان.

أردت لهـذه الكلمـات أن تكـون شـذرات منثـورة، توقظ الوسـنان، وتحـرك الغافل. وأسـأل الله تعالى أن ييسـر لي - فيما يسـتقبل من الأيام - بسط ما ورد في هذا المقال مختزلا، وتفصيل ما ذكرته فيه مجملا.

وحسبي الآن أن أكون قد طرقت بابا موصدا على أمثالي، ونفذت قليلا بذهن كليل، وفكر ضئيل، إلى تلك المعاني السامقة، والحقائق العالية.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

مناجاة الشيب

17 رمضان 1429

منـذ سـنوات قليلة، قدمـتْ علـي أولى طلائعـك، وأناخـت ركائبها بفوديّ، فتقبلتها بابتسامة باهتة، طمست بها وخزة عميقة في فؤادي.

وتعللت - فيما تعللت - بخاطرة خافتة الأنفاس، ملأتُ بها سـراديب فكـري، وجعلتها عنوة نورا يبصّ في سـدفة الكآبـة التي أحاطت بي من كل جانب، حتى غمرت كياني بما أقعدني عن مغازلة جمال الحياة.

تعللـتُ بحسـابات دفعتُ بهـا هجمتك التي احتوشـتني مـن أرجائي كلهـا، حتى كادت تسـقطني في مهامـه الضياع. وأقنعتُ نفسـي حينذاك أن تلـك الشـعرة البيضاء اللامعـة في حلكة شـعري البهيم، ليسـت تقدر على إخمادتلك الطاقة الرهيبة التي تفور في صدري، ويمور بها قلبي وضميري.

تعللتُ بأن الشـباب الذي يجري مـاؤه الغض في عروقي، أعتى من أن تكرثه شعرة صغيرة استحالت من لون إلى آخر.

تعللتُ بالذين سبقوني إلى مجاهل الحياة، فكانوا في مثل سني أو أكثر، وقد وضع الشيب ميسمه البغيض على مفارقهم، ينبضون بالحركة الدافقة، وتهـدر دماؤهم بروح الكفاح، كالسـيل المتحدر من قنـن الجبال، لا يقوم لغضبته الجارفة شيء من غثاء الفكر الرخيص، أو الفعل الهجين.

تعللتُ بما مضى علي في حياتي من عقبات كالأطواد الشامخة، تمثلتْ

بهيبتها أمام سيري الظليع، فلم أزل أعالجها بعزم يفت الصخر، حتى انجابت عن أفق من الأمل فسيح.

تعللتُ بهذا وبغيره، مما لستُ أذكره الآن، بعد أن غيبت سحنته عني أتربة النسيان.

تعللتُ.. وقلتُ لك:

لن تزيد على أن تكون ضيفا ثقيلا، أتى على غير ميعاد، وحل من غير استئذان.

ولن تعدوَ قدرك!

فما اكثر خِلانك من الضيوف الثقلاء!

ولم أزل مذ ذاك اليوم الذي ألقيتَ فيه عصا تَرحالك بفناء رأسي، أغالب فيك شعورين قد ملكا علي غياهب فؤادي، فأنا منهما بين نارين تتأججان، لا أكاد أطفئ حر إحداهما، حتى تتلقاني الثانية بصيخودها اللاهب.

أما الأول: فإحساس النائم المستغرق في نومه، لا يلقي لما حوله بالا، كأن الدنيا اختُزلتْ في شخصه، أو كأن الكونَ جُمع تفرقُه في ذاته؛ فإذا بصوت أجش مستنكر قد اخترق الفضاء، فارتجت منه جنبات الأرض؛ وإذا بذلك النائم يخر من برج أحلامه الساحرة، إلى أرض مجدبة سوداء، حصباؤها قذاراتُ الواقع الأليم.

كذلك شعرتُ حين حللتَ ضيفا لا يُرجى رحيله!

وكانت تلك اللحظة القاتمة، برزخا بين بُرهتين من عمري متباينتين.

كنتُ في الأولى أحمل بين جنبيّ ماردا جبارا، مستعصيا على الخوف، مستعليا على الكسل، دائم الانطلاق؛ لا يكاد ينهي قسمة غنائم فتح مجيد من فتوحه المتكاثرة، حتى يفزع إلى ميدان آخر من ميادين النضال والجلاد.

كنت في الأولى صقرا حائما، بل طيفا حالما، لا يمس الأرض إلا بمقدار ما يُعد للتدويم تارة أخرى في سباسب الفضاء الرحيب.

كنت في الأولى قويا كالأمل..

حالما كالطفل..

حازما كالصيقل في يد الكمي المغوار..

راسخا كالطود السامق..

جريئا كالإقدام نفسه، لو تجسد شخصا من البشر.

كنتُ في الأولى أرى القناعة بما دون الكمال موتا زؤاما، بل دونها الموت.

ثم كان ما كان..

فصرتُ في الثانية بعكس ذلك كله: حائرا في دروب الحياة، مضطرب العزم، متردد الفكر بين قبو وضياء، وبين حضيض وفضاء.

صرتُ أتحسس موقع كل خطوة قبل أن أخطوَها، وأحرر كل كلمة قبل أن ألفظها، وأغالب كل فكرة قبل أن أسلم قيادي لها. ثم أعود على نفسي بعد ذلك كله بالعذل المر، والعتاب المؤلم.

صرتُ كالشاة الفاترة التي يسحبها جزار غليظ القلب إلى موتها المحتوم. تتمنع تارة، وتصاول جلادها تارة أخرى، ثم لا تلبث بعد حظ من النصَب غير قليل، أن تستسلم لما يرادُ بها، فتسلم الروح بين جثة هامدة، ونظرة شاردة.

صرتُ كالهائم في متاهات الحياة، تتراءى له سمادير الغفلة، فتنبعث به صُبابة نفس أبية لتدفعها، فهو معها أبد الدهر في جلاد لا ينقضي أمده.

كذاك كنتُ..

وكذا صرتُ.

وكانت لحظة البقظة تلك فاصلا بين ما كنتُ عليه، وما صرتُ إليه.

وأما الإحساس الثاني، فلوعةُ المقصّر الذي يدرك عاقبة تقصيره، وحرقة السكيت حين يعاتب على تأخيره، وانكسار العاشق حين يلام على صده وهجره.

شعور الهزيمة هو!

أو قل - إن شئت أن تختصر الكلام فتهون وقع سياطه اللاهبة - هو شعور النكسة العاصفة في حلبة صراع لا يرحم.

سبق المشمرون!

ما أعذب هذه الكلمة حين تشملك وتحتويك في حضنها الدافئ، وما أقساها حين تلفظك كالنواة خارج حماها، وتصدح في أذنيك بصوت منكر:

وأين أنت من التشمير؟!

وأين كنت حين شمروا؟!

ألهوًا وطولَ أمل؟

أتفريطًا وأوهامَ غرور؟

أرُقادا وسعةَ رجاء؟

ما أتفهَ عقلك حين تقصد السوق لتقتني ما تحب، وليس في جيبك من ثمنه قليل ولا كثير!

يا هذا.. لقد سبقوا!

املأ بها سمعك، ثم سائلْ نفسك: إلى متى النحيب؟ وحتى متى العويل؟

قد آن لك أن تستبدل بهما حزماعُمريًّا، تلم به شعث نفسك المتضعضعة، وعزما شامخا تشرف به على دروب الحياة، فيما يستقبلك من الأيام.

مع الرافعي تحت راية القرآن

قراءة في كتاب (تحت راية القرآن - المعركة بين القديم والجديد)

29 رمضان 1429

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد

فهذا كتاب جمع محاسن الأدب، ودقة البحث، وهيبة الغيرة على الدين والخلق. يأخذك في ركابه، فتنتقل بين ظلال هذه الثلاثة، منبهرا بجمال الأولى، مذعنا لإتقان الثانية، مطمئنا إلى سلامة القصد والسبيل في الثالثة.

ليس هذا كتابا يتغنى بجمال الطبيعة، أو يصدح بتغاريد الحب، أو ينشد حداء للعاشقين، ولكنه مع ذلك آية في البلاغة، وغاية في نصاعة اللفظ، ورقة المعاني.

ثم إنه أيضا ليس كتابا يبحث ويناقش، ويعلل ويدرس، ويحقق ويحرر، ولكنه مع ذلك يدلك بالإشارة اليسيرة على مفاتيح ذهبية تحل بها إشكالات المباحث العلمية الدقيقة، ويرشدك بالطرفة الباسمة، والكلمة العابرة إلى بصيص النور في ضباب الإظلام القاتم.

ثم إنه بعد ذلك كله ليس كتابا شرعيا يفتي ويربط الأحكام بأدلتها في القرآن والسنة، ويعظ القلوب الغافلة عما يراد بها من مروق وانحلال،

ولكنه مع ذلك ينضح بالغيرة الصافية على محارم الله أن ينتهكها سدنة الفكر الغربي المنحل؛ وتشرق في جنباته أنوار الحب الصادق لهذا الدين، وللغته التي لا قوام له إلا بها. أو قل إن شئت: هو جهاد تحت راية القرآن، يرجع فيه مؤلفه إلى دين متين، وإيمان راسخ.

وإذا كان لبّ الكتاب تلك المقالات التي دمغ بها الرافعي ﵀ أستاذَ الجامعة المفتون بحضارة الغرب (طه حسين)، فإنه في مجمله ميدان معركة صاخبة طاحنة بين القديم والجديد، وبين أنصار هذا وأنصار ذاك.

والرافعي - عليه رحمة الله - لا يستنكف أن يُنبز بأنه من أنصار القديم، بل يثبت ذلك ويعتز به، ثم يسأل سؤال العارف عن ماهية هذا الجديد، وعن حقيقة ما يريده أنصاره والدعاة إليه؟

وعندما يمحص الرافعي حقيقة هذه الدعوة، ويسبر عمقها، فإنها لا تلبث أن تلقي له مقاليد أمرها في صورة أصلين جامعين يجهد أنصار الجديد أن يستروا نتنهما الخانق بقطرات من ماء الزهر يرشون بها ألفاظهم المتعفنة.

وأول هذين الأصلين أن أنصار الجديد دعاة هدم، ثم هدم ثم هدم. وليس لهم من عظمة البناء نصيب. فهم يقفزون كما تقفز الجرادة العرجاء، من هدم أصول اللغة، إلى هدم أساليب البيان، إلى هدم تراث الأمة، إلى هدم هيبة الدين في النفوس، بدعاوى باردة، وتكلفات سمجة.

فبعضهم يصرح للرافعي ﵀ بأنه لو ترك في أسلوبه الجملة القرآنية والحديث الشريف لكان أجدى عليه، ولصار في الأدب مذهبا وحده. وهل

هـذا إلا صريـح الهدم لأسـاليب الفصاحـة، بحجة التجديـد فيها؟ وكيف يكون التجديد في الأسلوب بقطع الوشيجة بأزكى أسلوب وأحلاه وأرفعه في مدارج الجمال؟

وآخر - وهو الاستاذ المأفون - يصرح بإنكار الشعر الجاهلي، ورد معظمـه، ويتعلق في ذلـك بأوهى من خيوط العناكب، وهـو مع ذلك يظنها حبـالا مـن البراهين متينة، أو قل: بهذا يريد أن يقنع طلبته المسـاكين. وهل تقـوم للعربيـة قائمة إذا انهدم هـذا الصرح المنيع، وقـام في موضعه خراب كئيـب قـد اختلطت فيه أحجـارٌ من أسـاطير الغربيين وخرافات أسـلافهم الوثنيين، بشـيء من الملاط المنسـوب إلى هؤلاء العصريين، لا يتعلق من العربية بنسـب، ولا يمت إليها بسبب، إلا كما تتعلق سمادير السكران بعلم الذرة، أو خيالات الحالم بقواعد الفيزياء.

وذاك الدعي نفسه، يخرج مكنون صدره في كتابه القذر، فيصرح بإنكار مـا لا ينكره إلا كافر بالقرآن العظيم، ويعلن ضـرورة التجرد من الدين عند البحث العلمي، ولا يدع شيئا من مقدسات المسلمين، إلا تعرض لها برأيه الفائـل، وفكـره المريض، تشـكيكا بلا دليـل، وتمردا بشـبهة الباطل على سلطة الحق المبين.

ثم إن هذا الهدم، لا يأتي بعده شـيء من البناء، ولو أن يكون كوخا من قصب، يعوض به هؤلاء تلك القصور المنيفة التي يسعون إلى جعلها خرابا يبابا. ولذا يخاطب الرافعي هؤلاء الأدعياء فيقول (ص 53):

(لقد سئمت نفوسنا هذه الدعاوى الفارغة، فاعملوا ثم سموا عملكم،

وصيدوا الدب ثم بيعوا للناس جلده، فلعلكم وأنتم تبيعون فروة دب لا تحصلون إلا على جلدة هرة).

حتى لقد بلغ الضعف العلمي بتلك الطائفة ومقدمها أستاذ الجامعة، أنهم إذ ينكرون الأساليب القديمة في التعبير والبيان، لا يأتون ببديل من الأسلوب الجديد، غير الطنطنة والتكرار، وجمود القريحة، وتبلد الحس.

يقول الرافعي (ص 17):

(وأشهد ما رأيتُ قط كاتبا واحدا من أهل "المذهب الجديد" يحسن شيئا من هذا الأمر، ولو هو أحسنه لانكشف له من إحسانه ما لا يبقي عنده شكا في إبطال هذا المذهب وتوهيته، ولذا تراهم يعتلون لمذهبهم الجديد بالفن والمنطق والفكر وبكل شيء إلا الفصاحة، وإذا فصحوا جاؤوا بالكام الفج الثقيل، والمجازات المستوخمة، والاستعارات الباردة، والتشبيهات المجنونة، والعبارات الطويلة المضطربة التي تقع من النفس كما تقع الكرة المنفوخة من الأرض لا تزال تنبو عن موضع إلى موضع حتى تهمد!).

وقد عرف الرافعي رحمه الله من طه حسين ذلك الضعف في ملكة التعبير، والنضوب في ملكة الكتابة، فاستهزأ ما شاء، وتهكم بالرجل وأسلوبه في الشعر والنثر، حتى لم يُبقِ في كيانه موضع ذرة لم يملأه بدواعي الخجل، لو أن الخجل يعرف إلى ذلك المفتون سبيلا.

فهو ينقل مثلا قول طه في بعض ما كتب (ص 81):

(نعم قصة المعلمين، فللمعلمين قصة وللمعلمين قضية، وكنا نحب ألا تكون للمعلمين قصة وألا تكون للمعلمين قضية، لأننا نربأ بمقام

المعلمين عن أن تكون لهم قصة أو قضية، ولكن أراد الله ولا مرد لما أراد الله أن يتورط المعلمون في قصة، وأن يتورط المعلمون في قضية، ليست قضيتهم أمام المحاكم وإن كانت أوشكت في يوم من الأيام أن تصل إلى المحاكم، وليست قصتهم مفزعة مهلعة (كذا كذا) وإن كانت أوشكت في يوم من الأيام أن تكون مفزعة مهلعة).

ويعلق بعد ذلك قائلا:

(فهذه عشرة أسطر صغيرة دار "المعلمين" فيها عدد أيام الحسوم.. وحكيت "القصة" ست مرات، وكان "للقضية" ست جلسات، غير ما هنالك من مفزعة ومهلعة قد أفزعت وأهلعت مرتين وغير ما بقي مما هو ظاهر بنفسه...).

ولا يترك الرافعي فرصة تمر دون أن يذكر القارئ بأن طه حسين لا يساوي في ميزان البلاغة شيئا، إن هو إلا التكرار الممل، والتفاصح المخزي، والتعالم المقيت. ويقول له فيما يقول (ص 86):

(على أني لو أردتُ أن آخذ معك في كتابتي هذا المأخذ لجعلتك تتلوى من الكلام المؤلم على مثل أسنان الإبر، ولاستقبلتك بما لا تدري معه أين تذهب ولا كيف تتوارى، كالإعصار الذي يأخذ عليك الجهات الأربع من آفاقها، أفأنت تقوم لي في باب الاستعارة والمجاز والتشبيه؟).

ما أُشَبّه هذا إلا بالذي يذبح الشاة المسكينة المضطربة، ثم يضع قدمه على صفحة عنقها، ويقول في نشوة الظافر: (لو استقبلت من أمري ما استدبرت لكان لي فيكِ نكاية أشد من هذا الذي أنت فيه)! وهل تركتَ

- أيها الأديب الجليل - في ذاك المسكين موضعا للزيادة، وقد ابتلي منك بما أذهله عن صُبابة فكره الحائر، وأغرز في فتنته أنياب المنايا الزرق، لو أن للمنايا أنيابا؟

وقد ذكرني صنيع الرافعي رحمه الله هنا بصنيعه مع الجبار في سفوده الذي وضعه له، مخصوصا به، فقد شواه هنالك على نار حامية في حرها، هادئة في وهجها، فما ترك فيه موضعا لفخر، ولا مكانا لجبروت.

وبالجملة، فإن طه حسين ومن معه يدعون إلى جديد لا طعم له، غير مرارة العلقم، ويهدمون قديما هو الطعم اللذيذ كله، والجمال الآسر كله، ومجامع الحسن كلها.

أما الأصل الثاني الذي يرجع إليه أنصار الجديد، ويمتحون من ثماده فهو التعلق بأهداب الغرب، فيما يأتي وما يذر. فهم قد ارتضعوا لبان الغرب، حتى أتخموا، فلم يعد لطعم التراث العربي في أفواههم مساغ.

وقديما قال أبو الطيب في مثل هذا:

ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مرا به الماء الزلالا

ثم إن هؤلاء، لم يروضوا أنفسهم بتذوق الشعر العربي القديم، ولم يرجعوا في ذلك إلى فهم ثاقب، ولا إلى ملكة فنية راسخة. فاجتمع في قلوبهم المريضة الجهل بمحاسن القديم، والافتتان بنتاج الغرب الذي يسمونه جديدا، فضلوا الطريق من حيث يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

وليت إعجابهم بالغرب الكافر، يكون محصورا في إعجاب بأسلوب في الأدب مستحدث، أو طريقة في الشعر مبتدعة، إذن لهان الأمر قليلا، ولأمكن رقع ذلك الخرق بأقل جهد، وأيسر معالجة. ولكن الأمر - في صميمه - افتتان بالغرب من حيث هو، أي بالغرب كله، حتى بالقذارات التي في بطون أهله، كما صرح بذلك عميدهم.

وإذا كان الغرب قد اطرح الكنيسة، وألغى وجودها العملي في الاجتماع والسياسة، فإن أنصار الجديد يطالبوننا بأن نلغي ديننا وأخلاقنا وقيمنا الثقافية والحضارية، ونتجرد من ذلك كله، لنكون أحرارا من القيود كلها، عند ممارسة البحث العلمي.

وإذا كان الغرب يشك في المسلمات والثوابت العقدية، ويتخذ الشك مطية للوصول إلى ما يشبه برد اليقين[1]، فإن أنصار الجديد ينتظرون منا أن نشك في ما يقصه علينا القرآن، وأن نشك في الذي يحدثنا به نبينا ﷺ، وأن نشك في وجود أشخاص قد كانوا في تاريخنا القديم؛ وأن نشك في كل شيء، إلا في أن الغرب إله لنا من دون الله، يستحق الطاعة والاتباع والعبادة!

والرافعي - عليه رحمة الله - لم يجمجم ولم يداهن، ولم يتبع طرائق السياسيين في قول بعض ما يرون، وإخفاء أضعاف ذلك، حرصا على وحدة موهومة، أو مودة مزعومة. بل أعلن برأيه في هؤلاء القوم صراحةً في

---

(1) كذا يزعم أمثال طه حسين ! والحقيقة بخلاف ذلك كله. فللغرب ثوابته التي لا يقبل فيها أدنى جدال، ويمنع أن يعرض لها بأدنى شك. غاية الأمر أن ثوابته انتقلت من مجال الدين والكنيسة، إلى مواضع أخرى في السياسة والحضارة.

مواضع متفرقة من كتابه، وأظهر كفرهم وزندقتهم، وأنهم يؤولون في رأيهم إلى إنكار الدين، والتفصي من الأحكام الإلهية.

وما أجمل قوله (ص 52):

(ولأقل لك في صراحة إن مساجد القاهرة ترى ألف سائح كل سنة ولا ترى في السنة كلها واحدا من أهل الجديد، فهذا هو مرد تلك النزعة).

وينكر على هؤلاء القوم سوء أدبهم مع النبي ﷺ، فيقول (ص164):

(وأما رأيه في النبي ﷺ فمن أعجب ما عجبنا له أنه ما من عالم أو كاتب مسلم يذكره ﷺ إلا صلى عليه أو وضع رمز الصيغة ولو هذا الحرف (ص) وترى كتاب المسيحية يأخذون بهذا الأدب في كتبهم العربية، لأن المسلمين يقرأونها؛ أما أستاذ الجامعة فكأنه لا يتولى النبي ﷺ ولا يحس عظمته ولا أثره، فقد ذكره في كتابه مرارا تفوت العد فلم يتأدب معه ولا مرة واحدة، فلا بعقيدة المسلمين أخذ، ولا بمجاملة المسيحيين اقتدى، بل طريقته هي طريقة المبشرين بعينها، ..)[1].

وكم من رأي يجهد صاحبه في ستره، بزخرف من القول، ومنمق من الحيل، ثم لا يلبث أن يظهر جليا في بعض الكلام، مما يقال أو يترك، فيذر صاحبه كالعريان، الذي يرى الطائفون حوله سوأته، وليس يملك إلى تغطيتها سبيلا.

---

(1) والرافعي - رحمه الله - أنكر على أبي رية في بعض رسائله تركه للصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم.

والرافعي في كتابه هذا، وفي كتابه الآخر الذي أرخ فيه لآداب العرب[1]، يظهر من سعة الاطلاع، وطول الباع، في علوم اللغة والأدب، ما يقسر القارئ على الإذعان لرأيه، والتسليم لعصارات فكره.

لكأن الرجل حين يتكلم في مسألة من دقائق اللغة، يقرأ في كتاب مفتوح، جامع لمسائل اللغة، ومباحثها العظيمة، يأخذ ما يشاء، ويذر ما يشاء.

ولكأنه حين يبحث منهجا أدبيا، أو طريقة من طرائق الشعر، قد تسنم قنة جبل شاهق، يطل على آداب العربية كلها، فهو يحكم عن علم، ويشهد عن معرفة دقيقة شاملة.

ويغذي هذه الإحاطةَ المعرفية الشاملة، عمق في التصور الفكري، ورسوخ في الحكمة الفلسفية، يصحبهما شدة نزع في توليد الأفكار، واستقصاء حقائق المعاني إلى الغاية التي ما بعدها غاية.

وهو إلى جانب ثقافته العربية، يرجع إلى معرفة طيبة بالثقافة الغربية، كما يظهر من نقده لبعض كلام (أناتول فرانس)، أو وصفه لحال (ألكسندر دوماس)، أو رده على المتحذلقين الذين يظنون أنفسهم سائرين على خطى بعض كتاب الغرب، وهم بعيدون عنهم، فكرا وأسلوبا ومنهجا أدبيا، بعد السماء عن الأرض.

أما أسلوب الرافعي في كتابه، فهو أسلوب الرافعي وحسب!

---

(1) هو في ثلاثة أجزاء، أحدها في إعجاز القرآن والسنة النبوية.

ومهما أردتُ أن أثني بخير ما يكون الثناء، أو أصف بأبلغ ما يكون الوصف، فلن أزيد بعد لأي من القول، وجهد من الفكر، على أن أقول: هو أسلوب الرافعي في أبهى ما يكون من صور الجمال والنصاعة والقوة.

ولو كان لي من الأمر شيء، لأمرتُ مدرسي اللغة العربية أن يجعلوا للناشئة وردا مقررا من كتابات الرافعي(1)، يقرأون فيها سلسبيلا عذبا نميرا من رقيق القول، ورشيق التعبير الفني. ولما شغلتُ أذهانهم بأقوام تصدروا مناصب الأدب العربي، وهم من معرفة هذا الأدب، أقل من القليل، بل أفرغ من صفر.

ولذلك تجد العامة الذين مروا بشيء يسير من الأدب وتراجم أعلامه، خلال دراستهم النظامية في المدارس، يعرفون - ولو بالاسم فحسب - أمثال طه حسين والشابي؛ أما الرافعي وأضرابه من أهل الأدب حقا، والفكر السليم صدقا، فلا يعرفون عن وجودهم شيئا، فضلا عن أن يرفعوا بنتاجهم الأدبي رأسا.

وللرافعي ﵀ أساليب في السخرية والتهكم، تذكرني في بعض المواضع بابن الرومي في سخريته اللاذعة، التي يستغرق بها أهاجيه، مع كثير من الإقذاع والفحش. أما الرافعي، فسخريته سامية رفيعة، لكنها حادة كأنياب القرش، ما تترك من الجسد الذي تخترقه، سوى لحم ممزع، على وضم قاني اللون.

---

(1) وقرينه في ذلك الشيخ أبو فهر محمود شاكر عليه رحمة الله.

كذا تصورتُ المسكين طاحين[1] عندما ينشب فيه الرافعي أظافر سخريته!

ومن أجمل ما يستعمله الرافعي رحمه الله في أسلوبه إيضاحا للفكرة، وتثبيتا لجذورها في نفس القارئ، ضرب الأمثال. فلا تكاد تخلو فكرة مستحدثة يعرضها للقارئ من مثل يجعله بإزائها، كالصورة التي يستند إليها المعلم في شرح نص من نصوص اللغة لتلامذته.

وقد بلغ الرافعي الغاية في هذه الأمثال المضروبة، في ما يسميه نسخة قديمة له من كتاب (كليلة ودمنة)، يرجع إليها بين الفينة والأخرى، فيستخرج منها مثلا، بل أمثالا، يضربها لما هو بصدد نقده من الجامعة، ومديرها، وأستاذ الأدب فيها.

وقد ذكرني هذا النهج المستحدث من النثر الفني الراقي، بما سماه الشيخ أبو فهر (مذكرات عمر بن أبي ربيعة)، ونشر منها مجموعة من المقالات الساحرة. على أن بينهما من الفرق في الأسلوب، ما بين أسلوب ابن المقفع في كتابته، وأساليب العرب في تخاطبهم خلال العهد الإسلامي الأول، الذي كان يعيش فيه عمر بن أبي ربيعة. فللرافعي وأبي فهر رحمهما الله من الاقتدار الأدبي، ما يجعلهما يتقمصان أسلوبا قديما يتكلفانه، ثم لا يظهر فيه من أثر التكلف أدنى وصمة.

---

(1) في بعض الأمثال التي يضربها، جعل الرافعي (طاحين) اسم نملة لها خبر يرويه في مقال بعنوان (فيلسوفة النمل)، وقال في الحاشية (ص 253): (كلمة من لغة النمل يقال إنها منحوتة من طه حسين ..) !!

ومن أمثلة ذلك، أن الرافعي يتكلف السجع في بعض ما يكتبه[1]- وهو نادر إذا قيس بغيره - ثم لا يكون إلا سجعا رائقا، ليس فيه برودة الصنعة، ولا سماجة المعالجة اللفظية.

وهذه علامة الكاتب البليغ، الذي بلغ في الكتابة مبلغ الإتقان، بما هو قريب من الكمال.

والرافعي الفيلسوف الحكيم، والأديب الناقد، له في كتابه هذا آراء تستحق أن تتناول بالبحث والتمحيص، وفاقا أو خلافا.

فمن ذلك رأيه في أن تعلم اللغات الأجنبية، وإلقاء العلوم الحديثة بها، أولى من التعريب. يقول رحمه الله (ص 48):

(فإن الزمن الذي تعرب فيه الكتب أو تمصر ثم تطبع وتنشر ثم تقرأ وتدرس لا يذهب باطلا إذا هو ذهب في تعليم لغة أجنبية من لغات العلوم والفنون محققة وتربح معها فضلا كبيرا، وأن تربح إلى لغتها لغة أخرى برمتها وتجمع إليها آدابها وفوائدها، وهذا ما لا يتيسر بعضه إذا مصرنا العربية لتلك الغاية التي زعموا وما يطلبون بها من الكفاية والإصلاح).

وهذه فكرة جديرة بالتأمل، والرافعي لم يزد على أن أشار إليها إشارة باهتة، ولا أدري إن كان قد بسط القول فيها في موضع آخر من كتبه.

---

(1) كما تراه في أول المقالة التمهيدية (ص 7)، أو ضمن مقالة (قد تبين الرشد من الغي) (ص 171).

ومـن ذلك أن لـه في عمر بن أبي ربيعـة رأيا، حريا بالتدبـر، والمقارنة بالذي قاله غيره من أهل النقد الأدبي. يقول رحمه الله (ص 228):

(.. وإني مـع ذلـك لا أرى أثقل ولا أبرد ولا أسـمج من شـعر ابن أبي ربيعة هذا حين يفضح النسـاء ويقول في شـعره: قلت لها وقالت لي، وكان مني كـذا وكان منها كذا. وما هو عنـدي بفن؛ بل خلق سـافل وطبع غوي ونفس عاهرة، بل هو فن هجو النسـاء إذ كان ابن أبي ربيعة لا يحسـن مدح رجل ولا هجوه، فسـقط من هذه الناحية ليرتفـع من الناحية التي تقابلها في النساء، فكأنه ارتفع بقوتين؛ ثم أراد الرجل أن يسير شعر في الأفواه ولا أسير من أخبار النساء وأحاديثهن، فهذا هذا.

إلخ).

وتعجبنـي غضبة الرافعي رحمه الله على من يقول في عصره: (لك مذهبك ولي مذهبي، ولك لغتك ولي لغتي)، فيقول لهم (ص14-13):

(فمتـى كنت يا فتـى صاحب اللغة وواضعها ومنـزل أصولها ومخرج فروعها وضابط قواعدها ومطلق شـواذها؟ ومن سـلم لك بهذا حتى يسلم لك حق التصرف "كما يتصرف المالك في ملكه"، وحتى يكون لك من هذا حق الإيجاد، ومن الإيجاد ما تسميه أنت مذهبك ولغتك؟..)

لكأن هذا الألمعي يخاطب أقواما في عصرنا هذا، يتخذون اللغة مرتعا مستباحا لأفكارهم التي يسمونها تجديدا. وهل يكون تجديد بغير ضوابط، تكـون لـه كالصوى التـي يهتدى بها في الطريـق؟ وهل التجديـد بغيرها إلا كالجواد الجموح الذي ليست له أرسان تكبحه وتخفف من غلوائه؟

وفي مثلهم أقولُ:

صارت الفصحى مرتعا مستباحا
كل غـر يرعـى بـه مُرتاحـا
قد تولى الإفساد في لغة القر
آنِ من حيث يدعـي الإصلاحا
يفسد اللفظ والمعاني! أليستْ
للـكلام الأبـدانَ والأرواحـا؟

وللمؤلـف كلمات نافعة عـن العلاقة بين الديـن والعلم (ص 272)، ومقالـة متكاملة عن الحضارة الغربية(ص274 - 279)، وحقيقة ما يوجد تحت تطريتها من البهرج الذي لا ينفق إلا على مفتون.

هذه قراءتي المختصرة لهذه المعركة الخالدة التي دبجها يراع ساحر، لكاتب عبقري.

وهـي قـراءة لا تزيـد علـى أن تتغنـى بالمحاسـن، وتصـدح بوصف المفاتـن، لعل ذلك يكون حاديا لبعض مـن يطالعها، أن يرجع إلى الأصل فيتنسـم من طيب عبقه، ويرجـع بعد ذلك إلى كتب هـذا الأديب اللوذعي فيمخر في عبابها الزاخر، حيث العلم الرصين، والأدب الملتزم.



حجابي

(أصل هذا المقال قصة واقعية)

10 شوال 1431

كانت تباشير الفجر الجديد تملأ الأفق ببساط من البياض، يخالط سدفة الليل الراحل، فينعكس على الأرض بغبش من النور، تتبين فيه قسمات الوجوه، وتقاطيع الأشياء، غامضة لا تبوح بمكنوناتها، كأنها ورثت من الليل شيئا من كتمانه، وحديثا من أسراره.

وكان نسائم الصباح الأولى تتراقص ثائرة في كل مكان، منطلقة عن كل قيد، تغازل البنايات السامقة، وتُجمّش الأشجار المترنحة، ثم تتسلل بين الثياب والأجسام، فتلطف من حرارة الصيف الخانقة.

وكانت المدينة تستيقظ من سباتها في بطء الكسلان إذ يصحو، ويبقى على فراشه لَقس النفس، ينبعث العضو منه تلو الآخر، ويتثاءب بين كل حركة وأختها، فلا تكتمل يقظته إلا بعد دقائق طويلة من المد والجزر بين ضيق الفراش وسعة الكون من حوله.

كان كل شيء من حول (أسماء) ساكنا مطمئنا، مقبلا في يومه على تكرار ما كان منه في أمسه، قد عرف الطريق التي سيسلكها فيما يستقبل من الساعات، وتبيّن صواها، وأبصر معالمها.

أما قلبها هي فكان مضطربا واجفا، كما لو أن صدرها صار قفصا

لعصفور صغير، لا يفتأ يقفز بين أسوار سجنه، يحن إلى الانطلاق والتحرر، ولا يجد إلى ذلك سبيلا. وكان ذهنها الصغير مزدحما بألف سؤال، ويضع لكل سؤال ألفَ جواب، ليس في واحد منها برد اليقين.

كانت (أسماء) قد ودعت صاحباتها عبر أسلاك الهاتف على عجل، فلم يكن السفر مخططا له منذ مدة تكفيها في لقائهن ومجالستهن. ولقد كانت تتمنى هذا اللقاء، لعلها تقتبس من دعابتهن البريئة ما ينير لها الطريق المظلم الممتد من أمامها، أو تتنشق من أريج عبثهن الساذج نفحة تتضوع منها أنحاء روحها المضطربة.

ولكنها اضطرت أن تسرع في مخاطبة من أمكنها منهن، قبيل صلاة الصبح بقليل، ثم ارتدت ثيابها، وأحكمت حجابها من فوق رأسها، وخطت أولى خطواتها خارج البيت الذي عاشت فيه سنوات طويلة من عمرها.

حملت (أسماء) حقيبتها، وأسرعت اللحاق بأبيها الذي كان يستحث الجميع بكلماته المتلاحقة. وكان قد رسم على شفتيه ابتسامة عريضة، يحاول أن يخفي بها ملامح القلق التي تسربت من فؤاده إلى وجهه.

لم يكن الأب راضيا عن هذا السفر المفاجئ الذي فرض عليه، ولكنه لم يكن ليخالف رؤساءه في مثل هذا، فليسوا هم من يتحكمون في الاختيار، ولا لهم القدرة على التغيير أو الإلغاء، وإنما عمله يقتضي أن يتنقل بين بلاد الأرض، لا يقر له في أحدها قرار. يستقر في البلد أربع سنوات لا غير، فما يشرع في معاشرة أهلها، والاعتياد على حضارتهم وتقاليدهم، حتى يُنقل على وجه السرعة إلى بلد آخر، فإذا به يستأنف علائق جديدة، ومعرفة طارفة.

فمـا كانت السـنوات الأربـع التي يقضيهـا في كل بلد قليلـة بحيث لا يربـط بأهل البلد وشـيجة، يؤلمه قطعهـا عند الفراق المحتـوم؛ وما كانت كثيـرة بحيـث تحبب له السـآمةُ الانتقال، ويهون عليه حـبُّ التجديد مرارة الارتحال. وإنما كان كالشجرة الصغيرة التي تنقل من مهدها بعد أن تنغرس بعض جذورها في الأرض.

كانت حياته على هذه الحالة منذ سـنوات طويلة، ولكن سفر اليوم لم يكن كالأسفار التي سبقته.

أمـا أوّلًا، فلأنـه مـا كان يتنقل من قبـل إلا بين البلاد الإسـلامية، فإذا اختلفـت الثقافـة، وتنوعت التقاليد، اتحد الدين، فلـم يبق من الخلاف إلا كمـا يكون بين الأخ وشـقيقه، يجمعهما كنف الأسـرة الواحـدة. أما الآن، فهـو مقبل على بـلاد أوروبا، حيث الفتـن والمغريات، وحيث الشـهوات والشبهات، وحيث.. لا إسلام.

وأمـا ثانيـا، فـلأن بنته (أسـماء) التي كانـت من قبل طفلـة لا تعي من أمـور الدنيا غير لُعبها ولهوها البريء، قد صارت الآن فتاة في ربيع شـبابها، قـد نضجـت آمالها، واكتملـت تطلعاتها. فكيـف يقتلع هـذا الكيان الغض من جذوره الراسـخة في أرض الإسـلام، ليزميه في أحضـان هذه الحضارة العجيبة التي تفغر فاها، فتلتهم كل ضيف يحل عليها، ثم تلفظه بعد أن تعيد عجنه بلعابها؟

أجالت (أسماء) بصرها في المدينة من حواليها، من خلال زجاج السيارة، وشرعت تراجع بعض ما علق بذاكرتها عن هذه المدينة التي شهدت أولى خطواتها في الحياة.

تذكرت مدرستها المتلفعة بدثار البراءة والطهر، حيث الألعاب البريئة، والدروس الجادة المفيدة، والتنافس المشروع على أرفع الدرجات؛ وحيث الأساتذة الوقورون يفرضون على من حولهم جوا من الاحترام والهيبة.

تذكرت المسجد المحاذي لبيتهم، حيث يرفع - خمس مرات في اليوم والليلة - ذلك النداء العُلوي الخالد، يصدح بتوحيد الخالق وتعظيمه، ويجهر بتقرير الرسالة المحمدية السمحة، فيخترق عنان السماء، وينتشر في أنحاء الأرض، ويعم الناس بأريجه الطاهر.

تذكرت أرسالَ المصلين، وهم يتوجهون - في رمضان وفي غيره - إلى ذلك المسجد، يلبون داعي الفلاح، في ثبات وسكينة، تحدوهم لذة طلب المغفرة، ويجرهم البحث عن الرضوان، والنعيم المقيم.

تذكرت (دار القرآن) التي كانت ترتادها مرة أو مرتين كل أسبوع، تلقي على أذني أستاذتها البشوشة الحازمة، ما أوكت عليه صدرها من آيات الفرقان، فتصحح لها ما أخطأت فيه، وتشجعها على المثابرة على الطريق، وحثّ الخطى في السير عليها، وتبشرها بما ينتظرها عند الوصول المرقوب. وتذكرت أصوات التاليات ترتفع من الحناجر الغضة، فتترع فضاء الدار بسحر من عبقها الفواح.

تذكرت جيرانها وهم يتشاورون في مصالح الحي، ويتجاذبون أطراف

الحديـث في ما يجد من أمور البيـوت وأهلها. فإذا أُخبروا بواحد منهم وقع في حاجة، أو انشـغل بموت قريب له، أو وليمة زواج أو نسيكة ولد، إذا بهم يتسـابقون إلى العطاء، وينضّون بالبذل، بقلوب مرتاحة، ووجوه مستبشرة. لا يعيـش الواحـد منهم إلا مـن حيث هو عضـو في جماعة حيه، يشـاركها أفراحهـا وأتراحهـا؛ ولا يستسيغ الواحـد منهـم أن يغلق عليه بـاب داره، ويصم أذنه عما يهتم له جاره وينصَب.

تذكرت عائلتها الكبيرة، حين تجتمع أيام الأعياد والعطل، تختلط فيها ابتسامات جيل الجدود، بحوارات جيل الآباء، بألعاب جيل الأحفاد؛ يوقر الصغيرُ الكبير، ويحدب الكبير على الصغير.

وتذكرت صاحباتها.. آه من ذكرى صاحباتها.. وآه من فراق صاحباتها..

مسـحت (أسـماء) خلسـةً دمعة جادت بها عينها، وقـد أخفت نصف وجهها في محاذاة نافذة السـيارة، فتكونت من أنفاسها الحرّى فوق الزجاج الصقيل طبقة حجبت عنها الرؤية، كما تحجب الغيوم زرقة السـماء، وكما يستر الغموض الكثيف سحنة المستقبل الآتي.

(أأترك هذا كلّه؟ أتسمح نفسي بالعيش بعيدا عن وطني وأحبابي؟ ألن ينفطر قلبي حين يفقد أسباب بقائه؟ ألن يضيع فكري بين خيالات الماضي وآلام الواقع؟ ألن..)

وتقفز (أسـماء) من مقعدها، حين ينتزعها صوت أبيها القادم من بعيد من أفكارها:

- "ها قد وصلنا إلى المطار.. ".

وانشغلت (أسماء) عن أفكارها السوداء، وحزنها الممضّ، بإجراءات الدخول وتفصيلات الركوب.

لكن ما إن أقلعت الطائرة نحو وجهتها البعيدة، حتى شعرت (أسماء) بقلبها ينتزع من صدرها كما انتزعت عجلات الطائرة من فوق أرض الوطن، وهو يخفق خفقان العصفور الجريح الواقع في فخ الصياد.

وألقت (أسماء) نظرة وداع من النافذة على وطنها المتنائي. وأحست بحبه يكبر في قلبها بمقدار ما كان حجمه يتضاءل في عينها، وهي تبتعد عنه.

نزلت الطائرة بعد نحو الساعتين من الزمان، هي كل ما يفصل بين إفريقيا وأوروبا، وبين حضارة الشرق وحضارة الغرب. وتأخرت (أسماء) قليلا، حتى لم يبق من الركاب غيرها، وظلت متشبثة بالطائرة، كما يتشبث الغريق بطوق النجاة، إلى أن افتقدها أبوها فرجع إليها، لينتزعها من آخر مكان تشعر بارتباطها العاطفي به، كما تقتطف الوردة من حضن الثرى، فهل يبقى لها غير الذبول؟

وكانت لحظة الولوج إلى المطار كالبرزخ الزمني بين حال وحال.

كل شيء تغير.. الوجوه غير الوجوه، وكلام الناس غير الكلام، وحركاتهم غير الحركات. حتى الطقس يستثير أحاسيس الغربة من مكامنها!

ودخلت (أسماء) في دوامة من الأحداث المتسارعة، لم تترك لها مجالا للتفكير، ولا لخيالها مجالا للانطلاق. كانت الصور تمر أمام عينيها متلاحقة، كما تمر صور السينما أمام مشاهدها: ابتسامة باردة على وجه

حازم هنا، وامرأة نصف عارية تعانق صديقا لها هناك.. جماعة من الشبان العابثين بأثواب مزركشة غريبة يتمايلون على أنغام الموسيقى التي تخترق آذانهم، رجل جالس في قاعة الانتظار وعلى ركبتيه حاسوب محمول قد انشغل بالنظر فيه عن الدنيا كلها، شاب بسترة داكنة يحث الخطى نحو الباب وهو مشغول بمكالمته الهاتفية عن الكون من حوله..

أحست (أسماء) بالدوار، فأغلقت عينيها واستسلمت لهذه البيئة الجديدة التي اكتنفتها من كل جانب، وأطلقت العنان لآمالها، لعلها تخفف عنها شيئا من وطأة القلق الذي يساورها..

لم تلبث (أسماء) إلا أياما قلائل، حتى جاء موعد الدخول المدرسي.

كانت تعلم حق العلم أن أخطر ما سيواجهها من التحديات في حياتها الجديدة، سيكون في المدرسة.

كانت تنتظر مشكلات في مناهج الدراسة ومقرراتها، أو في التعامل مع الأساتذة الأوروبيين. وكانت تخشى ألا تجد لها بين زميلات الدراسة صديقة توافقها في طباعها وطريقة تفكيرها.

كانت تتوقع أشياء كثيرة من السوء بمكان، ولكن شيئا واحدا لم تتوقعه، ولا خطر ببالها قط..

دخلت المدرسة إلى جانب أبيها، تكاد تحتمي بشخصه من النظرات العابرة، التي تجزم في باطن نفسها بأنها تلاحقها. وتوجها معا إلى الإدارة، لتكميل إجراءات التسجيل.

كانـت المديرة غارقة في كرسـيها الوثيـر، وأمامها كومـة من الأوراق المتناثـرة. ومـا إن دخلـت (أسـماء) وأبوهـا، حتى رفعـت إليهمـا عينين باردتيـن، فارغتين من كل إحسـاس، وألقت عليهما تحية أبرد وأفرغ. كأنها كانت قد استعدت للقائهما بقراءة ما في ملف التلميذة من المعلومات.

وبعد كلمـات مجاملة مقتضبة، طلبت المديرة من (أسـماء) أن تغادر المكتب، وتنتظر أباها في القاعة المجاورة، لأن لديها ما تناقش والدها فيه.

وخرجت (أسماء)، واستسلمت من جديد لهواجسها التي لا تطاق.

مرت سـاعة قبل أن يخرج الأب من غرفة المديرة، شـاحب السـحنة، ممتقـع اللون؛ كأن روحه قد اختطفت من جسـده، وبقي منها شـيء يسـير تتحرك به أطرافه. وأسرع نحو الباب، و(أسماء) تلحق به.

وما إن دلفا إلى السيارة، حتى ألقى إليها الخبر المفجع:

- "أسـماء.. أخبرتنـي المديـرة أن عندهـم قانونـا يلزمنـا.. أقصـد: يلزمك.. ".

ورفعـت (أسـماء) عينيها إلى أبيهـا في تؤدة، فالتقـت عيناهما. ووجد الأب الفرصـة سـانحة ليلقي كلماته في ألطف ما يقـدر عليه من التعبيرات، وبأرق ما لديه من الحنان:

- "أسماء: عليك أن تخلعي حجابك إن شئت الالتحاق بالمدرسة".

نزل الخبر على رأس (أسـماء) كما تنزل المطرقة الحديدية الضخمة، فلا تترك من ورائها غير الدمار في المشـاعر، والشـتات في الأفكار، والغصة في الحلق.

واستدارت مرة أخرى إلى زجاج النافذة تتأمل الكون من ورائه.. وسكتت، وسكت أبوها، فليس عنده من الكلام ما يفيد، بل ما بقي للكلام مجال أصلا.

كان الليل ساكنا، فيه وحشة القبور، وضيق اليأس، وقبح الظلم.

كانت (أسماء) تتقلب على فراشها، ولا تكتحل عيناها بنوم. تناجي نفسها بصوت مسموع تارة، وتخفي هواجسها في نفسها تارة أخرى. ثم إذا ضاقت عليها منافذ الأمل، توجهت إلى ربها بالدعاء..

ما أقدر هذا الذهن الصغير على تحمل هذا القرار الكبير!!

وهل هي تملك القرار أصلا؟! أليس القرار معدا من قبل.. أعده أساطين الحرية الشخصية، وأرباب المنافحة عن حقوق الإنسان؟!

أف لكم، ولحريتكم التي تقف عند حدود شقر الرؤوس، زرق العيون، ولا تتجاوزها إلى الذين تعدّونهم بالكلام بشرا مثلكم، وبالفعل حشراتٍ مؤذية تتنافسون في سحقها!!

أف لشعاراتكم الجوفاء عن حقوق الإنسان.. ألا ليتكم توضحونها بقيدٍ يصرف الجهلاء من بني جلدتنا عن الاغترار بها.. ليتكم تقولون: حقوق الإنسان الغربي أو الأوروبي أو ما شئتم من القيود!

أليس من حقي - في أعرافكم ودساتيركم - أن ألبس ما أشاء من الثياب، وأنشئ ما يحلو لي من التصرفات؟

ألستم تزعمون أن للفرد حريته التامة في معتقده وفكره وتعبيره وهيئته ولباسه وأكله وشربه، ما دامت حريته لا تتعارض مع حرية الآخرين؟ وهل حجابي الذي أضعه على رأسي يعارض حرية زملائي أو أساتذتي في الدرس؟

أنتم تقبلون في مجتمعكم العاهرة التي تبيع عفافها لكل ذئب بشري، وتقبلون الراقصة العارية التي لا ترد يد لامس، وتقبلون الممثلة في الأشرطة الداعرة البهيمية (ولتعذرني البهائم)، ثم لا تقبلون فتاة تضع على رأسها حجابا؟

في مجتمعاتكم شباب متعصبون، يحلقون رؤوسهم، ويشِمون على سواعدهم صليب النازية المعقوف، ويثنون على زعماء الفاشية الذين قتل بسبب حماقاتهم ملايين الأوروبيين، ومع ذلك لم تتحرك حكوماتكم لسن القوانين، وتجريم هذه الأعمال. أفضاقت عقولكم وقلوبكم عن تقبل فتيات مهذبات محجبات، ليس في هيئتهن عليكم من ضرر؟

ولكن، لِمَ ألومكم؟

ليس الخطأ منكم، ولا العتب عليكم. ومتى عوتب الذئب على قرمه إلى لحوم النعاج؟ أم متى ليمت السباع على افتراسها ضعاف الأنعام؟

وهل أنتم إلا عدو من الأعداء، كشر عن أنيابه منذ زمان بعيد، وأظهر لؤمه وعداوته كلما تمكن من ذلك؟ ومتى كان الذي بين الأعداء عتابا وعذلا؟

أنا ألوم بعض حكام المسلمين الذين يضطهدون المحجبات في بلدانهم، فيكونون للأوروبيين قدوة في الشر.

وألوم المفكرين المنتسبين للإسلام، حين يهونون من شأن الحجاب، كأنه ليس من شريعة الله.

وألوم المجتمعات الإسلامية التي تتهالك على حضارة الغرب، وثقافة الغرب، وكل ما يأتي من الغرب، حتى صرنا محتاجين إلى الغرب في كل ما نبقي وما نذر، وصار الغرب عنا في غنى.

وألوم الآباء الذين يرسلون أبناءهم إلى بلاد الكفر، فيَسلم القليل منهم بعد سنوات من المجاهدة والمدافعة، ويضيع الأكثرون في مهامه الفسق، وفيافي الشبهات. فإذا مرت السنوات صرت ترى الرجل المقيم هناك ليس فيه من الإسلام غير الاسم والعنوان، وشيء من التقاليد البالية التي حزمها مع أمتعته حين قدم إلى هذه البلاد، وهو يحسبها من الإسلام، أو يظنها الإسلام كله!

ألوم الآباء حين يصمون آذانهم عن صرخات المستضعفين من المسلمين الذين يفتنون في دينهم صباح مساء، ولا يملكون لرد العدوان عنهم حيلة، ولا يهتدون سبيلا. فإذا بهم يحتجون بمن سَلم من الفتنة، ونجا بدينه، وهم الأقل، ويغمضون أعينهم عن رؤية الهالكين، وهم الأكثر.

وما بهؤلاء الآباء إلا الانبهار بالغرب وثقافته، حتى إن كثيرين منهم يرسلون أبناءهم للدراسة في تخصصات مشهورة، يوجد نظائرها في بلاد الإسلام!

ولو أن الآباء - وهم مؤتمنون على أولادهم - علموا أن في مكان ما وباء يستشري، أو مرضا ينتشر، لما دفعوا بفلذات أكبادهم إلى ذلك الأتون

المستعر مخافة أن يلتهم صحة أبدانهم، فكيف يهون عليهم أن يرسلوهم إلى بلاد الغرب، وهم يعلمون أنها تأكل أديانهم، وتمرض قلوبهم، وتسمم أفكارهم؟!

صدق رسول الله حين تبرأ من الذي يقيم بين المشركين. وهل تكون إقامة اختيارية إلا بمودة وإخاء، وبنقضٍ لعرى الولاء والبراء؟ وهل تكون إلا بتنازل عن شيء من الدين، صغر أو كبر - وليس في الدين صغير؟

باتت (أسماء) ليلتها بشر حال. ولما أضاء الكون بشمس الصباح الوديعة، كان قلبها لا يزال في ظلمة كئيبة.

ذهبت صحبة والدها إلى المدرسة، وبعد أن نزلت من السيارة، وودعت والدها بكلمة آلية فارغة من كل شعور، تسللت في بطء إلى باب المدرسة.

وهناك على الباب، مدت يدها اليمنى إلى عروة حجابها لتفتحها، ويدها اليسرى إلى خدها، لتمسح دمعة مهراقة، وضجيج التلاميذ يترع الأسماع.

دروس من حياة المعتمد بن عباد

جمادى الأولى 1432

قد كان دهرك إن تأمره ممتثلا

فردّك الدهر منهيًا ومأمورا[1]

بهذا البيت يخاطب المعتمد بن عباد نفسه، فيلخص سيرته الذاتية، أيام ملكه وجبروته بالأندلس، وأيام ذله وهوانه بأغمات، بضاحية مراكش، وذلك في قصيدته الرائية المشهورة، التي تغنّينا بها صغارا، ورثينا لحال ناظمها، لأنه ما ترك سبيلا لاستدرار الدمع من عين قارئ أبياته إلا سلكه.

ونحن إذ كنا نحزن لأحزان الرجل، ونألم لآلامه التي بثها في كل لفظ من ألفاظه، ونستحضر أمامنا صور بناته الأميرات اللواتي تبدل بهن الحال فصرن يغزلن للناس بالأجرة؛ لم يكن يخطر ببالنا إلا هذا الجانب الأوحد من الصورة التاريخية المركبة. وكان يكفينا أن نختزل حياة المعتمد في قصة ملك أديب شاعر، غدر به ملك همجي ظالم، فساقه من حياة الرفاهية والمجد، إلى عيش الفقر والهوان. ولم نكن نحسب أن من وراء ذلك جوانب أخرى تحتاج إلى تأمل، قد يفضي إلى صورة أخرى غير التي توحي بها ظواهر كتب الأدب.

والحق أن المعتمد بن عباد قد اجتمع فيه - في كفتي الخير والشر -

(1) نفح الطيب للمقري (4/ 274).

متناقضات عجيبة، ترفع الرجل في بعض إشراقاته إلى أعلى مدارج العظمة، وتنحط به في بعض مواقفه إلى أخس دركات البشرية المغرقة في اتصالها الأرضي، المنبتّة عن وحي السماء.

أما في كفة الخير، فقد كان المعتمد بن عباد ملكا شجاعا، وفارسا مغوارا، عرفته ميادين الكفاح، وألفته ساحات الجهاد. وقد أظهر في معركة الزلاقة من البلاء الحسن، وصدق العزيمة في الحرب، وشدة الصبر على مكاره الهيجاء، ما حفظه له التاريخ، وأثنى به عليه رواته الصادقون.

وله في كفة الخير أيضا موقف ناصع، لا يتأتى مثله إلا لأهل التدين الصادق، والحمية الإسلامية الراسخة. وذلك أن ملوك الطوائف حين تهددهم طاغية الإفرنج، وأوشك على قصد بلادهم لاستئصال شأفتهم، أرسل المعتمد إلى أمير العدوة المغربية يوسف بن تاشفين، يستنصره ويتقوى به. وحين عذله بعض المفتونين، وخوفوه ضياع ملكه، وذهاب سلطانه، قال كلمته السائرة التي بقيت تتحدى النسيان، وتطاول الإهمال، يتناقلها أهل التواريخ، وينشأ على حلاوتها شداة الأدب الخالد: (رعي الجمال خير من رعي الخنازير!)[1].

---

(1) نفح الطيب للمقري (4/ 359)، وتاريخ الإسلام للذهبي (32/ 25). وفيه أنه أجاب الإذفنش بقوله:

الذّلّ تأباه الكرام وديننا	لك ما ندين به من البأساء
سمناك سلمًا ما أردت وبعد ذا	نغزوك في الإصباح والإمساء
الله أعلى من صليبك فادّرع	لكتيبة خطبتك في الهيجاء
سوداء غابت شمسها في غيمها	فجرت مدامعها بفيض دماء
ما بيننا إلاّ النّزال وفتنة	قدحت زناد الصّبر في الغماء

ولـه بعد ذلك كله، وقبل ذلك أيضا، شـيء يشـفع لـه عند أهل الأدب خصوصـا، وعنـد كل ذي ذوق فنـي، يحـب الظـرف، ويعشـق الخيـال، ويحسـن تقديـر المعنى النبيل، واللفظ الجميل. نعم، كان المعتمد شـاعرا فحلا، أندلسـي الطبع، رقيق الديباجة، سـريع البديهة، ظريفا محببا. وكثير مـن النـاس يهـوون الأدب، وإن لـم يكونوا في أنفسـهم أدبـاء؛ ويحترمون أهـل الأدب وينظرون بعين الصفح إلى نقائصهم، ويقبلون من عيوب أهل الفصاحة واللسن، ما لا يقبلون معشاره من أهل الفهاهة والعيّ.

أمـا في كفـة الشـر، فقـد اجتمع علـى المعتمـد مواقف مظلمـة، تنزل بالرجـل إلى حضيـض يجامعه فيه أهل الاسـتبداد والترف، والمتشـبعون بالفكر السياسي المكيافيلي.

فمـن تلك المواقف مـا وقع له مع ابـن جهور، وملخـص القصة كما كتـاب (الذخيرة في محاسـن أهـل الجزيـرة 2 /610) أن أميـر قرطبة عبد الملـك بن جهـور احتاج إلى الاسـتعانة بالمعتمد بن عبـاد ليدفع عنها من أغار عليهـا. فجاءت جيوش المعتمد ورابطت بظاهـر قرطبة، (وأقاموا بها أياما يحمـون حماها، وأعينهم تزدحم عليه، ويذبون عن جناها، وأفواههم تتحلب إليه)، كما يقول الشـنتريني. لما انصـرف العدو عن قرطبة، لم يرع ابن جهور إلا عساكر المعتمد تغدر به، بعد أن كانت حليفة له، مظهرة وده، فاحتلوا بلاده، وقبضوا عليه وعلى إخوته وأهل بيته، أذلاء منتهكي الحرمة.

وحفظ التاريخ أن ابن جهور لما وصل إلى وسط قنطرة قرطبة خارجا منها، رفع يديه إلى السماء وقال: (اللهم كما أجبت الدعاء علينا فأجبه لنا). فمضـى الزمان، ودارت على المعتمد وأهله الدوائر، وإذا به يلقى من الذل في سجن ابن تاشفين، نظير الذي لقيه ابن جهور في سجنه.

ومن ذلك أيضا ما حدث له مع وزيره أبي بكر محمد بن عمار المهري، الذي كان صفيه وخليله، ثم وقع منه ما وقع، فسجنه ولم يرق لاستعطافه، ثم ذبحه صبرا فيما ينقل المؤرخون[1]. وما أشبه هذا بأساليب عتاة المستبدين من الملوك والسلاطين، وما أبعده عن صورة الأديب الذي ينضح شعره بالظرف، ويكاد يسيل من الرقة!

ومن ذلك أيضا قصته مع الرميكية.

والرميكية هذه جارية شغف بها المعتمد، فهتك من أجلها أستار محاسن الأخلاق التي يتحلى بها أهل الحزم من الملوك، وأرباب العزائم من الرجال.

يقول المقري في النفح[2]: (وقد روي أنها رأت ذات يوم بإشبيلية نساء البادية يبعن اللبن في القرب، وهن رافعات عن سوقهن في الطين. فقالت له: (أشتهي أن أفعل أنا وجواري مثل هؤلاء النساء). فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد، وصير الجميع طينا في القصر، وجعل لها قربا وحبالا من إبريسم، وخرجت هي وجواريها تخوض في ذلك الطين. فيقال إنه لما خلع، وكانت تتكلم معه مرة فجرى بينهما ما يجري بين

---

(1) سير النبلاء (18/ 583)، وفي المعجب للمراكشي (دار الفرجاني - ص 115): (فخرج المعتمد حنقاً وبيده الطبرزين حتى صعد الغرفة التي فيها ابن عمار فلما رآه علم أنه قاتله فجعل ابن عمار يزحف - وقيوده تثقله - حتى انكب على قدمي المعتمد يقبلهما والمعتمد لا يثنيه شيء فعلاه بالطبرزين الذي في يده ولم يزل يضربه به حتى برد)!

(2) نفح الطيب (1/ 440).

الزوجين فقالت له: (والله ما رأيت منك خيرا)[1]. فقال لها: (ولا يوم الطين؟!) تذكيرا لها بهذا اليوم الذي أباد فيه من الأموال ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فاستحيت وسكتت).

ومن ذلك - وهو أخطر هذه المواقف وأحلكها، لما له من التعلق بالتوحيد - أن المعتمد لم يتردد في الاستغاثة بالفنش طاغية الفرنجة، ليرد حصار ابن تاشفين عن مدينته. يقول ابن خلدون[2]: (واستنجد الطاغية فعمد إلى استنقاذه من هذا الحصار فلم يغن عنه شيئا، وكان دفاع لمتونة مما فت في عضده، واقتحم المرابطون اشبيلية عليه عنوة سنة أربع وثمانين وتقبض على المعتمد وقاده أسيرا إلى مراكش).

ولذلك فقد استفتى أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين الفقهاء في هذه الواقعة، فأفتى أكثرهم بأنها ردة، لكن قاضيه وبعض الفقهاء لم يرها ردة ولم يبح دمه[3].

وما أعظم البون بين الحادثة الأولى التي استنكف فيها المعتمد أن يستعين بالإفرنج، وفضل على ذلك الارتماء في أحضان المرابطين المسلمين، وبين ما آل إليه أمره في هذه الحادثة المحزنة!

---

(1) صدق الحبيب صلى الله عليه وسلم حين قال في الحديث الصحيح: (يكفرن العشير ويكفرن الإحسان: لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت: ما رأيت منك خيرا قط!).

(2) تاريخ ابن خلدون: (6/ 187).

(3) الدواهي المدهية لجعفر بن إدريس الكتاني (111)، ينقله عن نوازل البرزلي.

وبعدُ فما لنا وللمعتمد بن عباد؟ وفي أي شيء يهمنا المعتمد وما فعله المعتمد، وقد أفضى الرجل إلى ما قدم منذ قرون عديدة؟ وإلى متى نبقى ندوك في سيرته وهو الآن بين يدي رب حكيم عادل، يحاسب بالقسط، ولا يظلم عنده أحد؟

الحق أنه لا يهمنا المعتمد، ولا سيرة المعتمد، إلا بمقدار ما نستخلص من ذلك دروسا تكون حاديا لقارئها في سلوكه الحثيث إلى الله، وعبرا تكون زادا لمتدبرها في سعيه إلى معالي الأمور، وبعده عن سفسافها.

وقد تأملت فيما سبق بيانه من المواقف، فاستخلصت بعض الدروس، ولست أزعم الحصر ولا الاستقصاء، ولكن هذا الذي ظهر لي بادي الرأي. ولن تعدم حياة هذا الرجل المضطربة بالأحداث الجسام، والمتموجة بالفتن العظام، من يستخرج منها غير هذه العبر.

الدرس الأول:

مرتع الظلم وخيم، وعاقبتُه أشد مرارة من الصاب والعلقم. وبينا الظالم في غفلته، مسرورا بما اقترفت يداه، مطمئنا إلى دنياه المليئة بالمسرات والأفراح، إذا بعاديات الأيام تنتزعه من أوهامه، وتفسد عليه زينة أيامه. وإذا بالسرور ينقلب حزنا وكآبة؛ وإذا السعادة شقاء، والرفعة ضعة وذل، وضياء الشمس حندس رهيب.

ومن لم ير عاقبة ظلمه في الدنيا، فإنه يراها في الآخرة، أعظم وأنكى؛ فيتمنى من هول ما يرى هناك أن لو عجلت له العقوبة في هذه الدنيا الفانية: يفنى نعيمها كما يفنى عذابها.

فليحذر الظلمة وأعوانهم، ومن يرقع ما انفتق من سيرهم، ويصلح ما تهلهل من مواقفهم، بالبيان الإعلامي تارة، وبالفتوى الفاجرة تارة أخرى.

فليحذروا أجمعين، فإن حال المعتمد لم يدم له على ما خير ما كان يتمناه. وإن نظراء المعتمد - بل الذين فاقوه عتوا واستكبارا، وكثرة أنصار وأعوان - لم يلبثوا أن وجدوا - في يوم من أيام الدهر الجارفة - قصور الوهم تتساقط من حولهم، فكأنها ما كانت، وكأنهم ما كانوا!

الدرس الثاني:

إن التاريخ حافظ أمين: يحفظ مواقف الخير، وتصرفات الشر. لكنه يكتب لأهل المواقف الطيبة الناضحة بالشجاعة والنبل، الخلودَ في ذاكرة الزمن، والبقاء في مخيلات الناس؛ ويرمي أهل المواقف السيئة في مزابل النسيان، وفيافي الإهمال. وليس يبقى ذكر أحد من هؤلاء إلا إن اقترن بذكر أهل الخير (كما بقي ذكر ابن أبي دؤاد لأجل اقترانه بمحنة أحمد بن حنبل رحمه الله ورضي عنه)، أو اقتضت حكمة الله أن يبقى ليكون عبرة للمعتبرين، وعظة للمتدبرين.

ولذلك حفظ الناس قديما وحديثا قولة المعتمد: (رعي الجمال خير من رعي الخنازير)، وحفظوا معها أن المعتمد أبت له شهامته أن يذل لأعداء الدين، وفضل التضحية بالعرش - إن كان ولا بد - على التضحية بالدين. وجهل أكثر الناس الواقعة الأخرى، أو تجاهلوها.

إن الناس في كل زمان مغرمون بالبطولة، متيمون بالشجاعة؛ تهفو قلوبهم إلى الكلمات المفعمة بسمو العزائم، والأفعال التي تشي بنبل الأخلاق، والتعلق بأسباب المجد.

وإنهم في كل زمان أيضا يبغضـون الذل، ويكرهون المهانة، ويعافون الخلـود إلـى الأرض. وإذا وقع من أحدهم شـيء من ذلك، لم يسـره أن يظهـر أمام النـاس، بل هو يخفيه كما تسـتر السـوآت، التي يُسـتحيى من بروزها.

لا جرم أنهم يذكرون ما يحبون، وينسون أو يتناسون ما يكرهون.

ويتأكـد هذا الأمر في عصـور الهزيمة، وحِقب الانحطـاط، حين يُعوز الناس أن يمارسوا البطولة، أو يروها ماثلة أمام أعينهم؛ فيلجأون إلى تمثلها في التاريخ، وتصورها في أزمنة الماضي.

فهل يفهم أشراف المسلمين، وأهل الفضل منهم، هذا المعنى الخطير، فيبادرون إلى تدوين أسمائهم في سجلات الفخار، بالمداد الذي لا يمحى؟

الدرس الثالث:

قـد يجتمـع في الشـخص الواحد خيـر وشـر، ويمتزج في سـيرته حق وباطل، وتتجاور في أقواله وأفعاله الحسنات والسيئات. فالسعيد من غلب خيرُه شرَّه، وغمر حقه باطله، وفاقت حسناته سيئاته.

والمتطلب في بني البشر - حاشا من عصمه الله من الأنبياء والمرسلين - خيـرا محضا لم تداخله شـبهة شـر، وحقا صرفـا لم تخالطه شـائبة باطل؛ كالذي يتطلب جذوة النار المتقدة في حضن الماء.

فلسـت بمستبق أخـا لا تلمـه

على شعث أي الرجال المهذب

الدرس الرابع:

قراءة التاريخ ينبغي أن تكون بنظرة شاملة، لا تجتزئ ببعض المواقف والأحداث، وتبني عليها حكما عاما. فالاستناد إلى بعض مواقف المعتمد دون بعضها الآخر، أفضى ببعض الناس إلى فهم مغشوش لشخصية الرجل.

ولا يزال كثير من الذين يكتبون في التاريخ (من المعاصرين خصوصا) ينظرون إلى الدول السابقة، وأعلام التاريخ نظرة سطحية، تنطلق من فكرة مسبقة جاهزة، ثم تعممها على الشخص المحكوم عليه، أو الدولة المراد تقويمها، بطريقة التجزيء والاقتطاع.

فإذا أرادوا إظهار صورة شخص صالح، يستحق الثناء، ضخموا كل مواقفه الحسنة، وأغفلوا كل مثالبه، قلت أو كثرت. والعكس بالعكس.

والحقيقة التاريخية في غالب الأحيان أعقد من ذلك بكثير. وأغلب الناس يجتمع فيهم خير وشر، وحق وباطل. فالمنهج العلمي يقتضي إبراز كل ما ثبت من الحقائق التاريخية، ولا يعمل منهج الموازنات إلا عند إرادة إصدار الحكم النهائي على الشخص، فحينئذ يوازن بين الحسنات والسيئات، ويحكم بالغالب.

الدرس الخامس:

إن الحكم على الأشخاص - قدماء أو محدثين - ينبغي أن يكون معتمدا على ضوابط شرعية واضحة. ومن أعظم الخطل أن تترك هذه الضوابط لغير حملة الشريعة، من الأدباء أو الإعلاميين أو كل من بضاعته التقميش الساذج في كتب التواريخ.

إن للأدباء - على الخصوص - طرائق عجيبة في تزيين القبيح، وتشويه الحسن. وهذه القدرة تحسب لهم في مقامات الأدب، ومراتب الفن، ولكنها لا يمكن أن تغير الحقائق الثابتة، فالحسن حسن والقبيح قبيح.

ويحضرني في هذا الباب ما نقله الجاحظ عن مالك بن دينار أنه قال: (ربما سمعت الحجاج يخطب، يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه وأنه صادق لبيانه وحسن تخلصه بالحجج)[1].

ويحضرني أيضا هجاء المتنبي لكافور الإخشيدي في تلك الدالية السائرة، التي ما أنشدها طالبُ أدب إلا ظهر له المهجوّ في أقبح صورة، حسا ومعنى، مع أن التاريخ يشهد لكافور بحسنات ومقامات عالية في العدل وسياسة الدولة[2].

وهذه فتوح (سيف الدولة) خلدها المتنبي بشعره، مع أنها إذا قيست ببعض المعارك الكبرى التي انتصف فيها المسلمون من أهل الشرك، كحطين وعين جالوت، لم تكن شيئا مذكورا. ولكنه سحر البيان!

الدرس السادس:

اشتهر المالكية في القديم بالشدة في الحق، والصرامة في قطع دابر الباطل، خاصة في مسائل الاعتقاد، كما تراه جليا في فتواهم التي نقلنا آنفا.

---

(1) البيان والتبيين (1/ 311) - دار الهلال - ت: علي أبو ملحم.

(2) قال الذهبي في ترجمته من سير النبلاء (وكان مهيبا، سائسا، حليما، جوادا، وقورا ..) وقال أيضا (وكان ملازما لمصالح الرعية. وكان يتعبد ويتهجد ..).

واشتهر في المشرق إحالة قضايا الزنادقة والمرتدين على القاضي المالكي دون غيره، لما عرف عن المالكية من تشدد في هذا الباب[1].

أما في هذا العصر، فقد ابتلي المذهب المالكي، بقوم ينتسبون إليه زورا، ما تركوا بابا من أبواب التميع إلا طرقوه، ولا سبيلا من سبل التساهل المذموم إلا سلكوه. حتى صار المذهب المالكي في أذهان كثير من عوام الناس مرادفا للتساهل وموافقة الهوى.

ومن هنا تعظم الحاجة إلى تصحيح هذه الصورة المغلوطة، دون إفراط ولا تفريط. وتقع مسؤولية ذلك على كبار فقهاء المالكية في عصرنا.

الدرس السابع:

قد يقع لبعض المؤرخين أو الأدباء شيء من التحامل غير المقصود -في الغالب- على البربر، أهلِ المغرب الأصليين. ومثاله ما وقع لجرجي زيدان في روايته (شارل وعبد الرحمن)، وللشيخ الأديب العلامة علي الطنطاوي رحمه الله في قصته (عشية وضحاها) ضمن (قصص من التاريخ)، ولغيرهما.

وفي هاتين القصتين يظهر البربر بمظهر الهمج الرعاع، الذين لا يعرفون معروفا، ولا ينكرون منكرا، ولا يمتون إلى أسباب الحضارة بصلة.

---

(1) وقد يكون الأصل في ذلك مذهب مالك في عدم استتابة الزنديق. قال ابن رشد في (البيان والتحصيل) (16/ 391): (هذا أمر متفق عليه في المذهب أن المرتد المظهر الكفر يستتاب، وأن الزنديق والذي يسر اليهودية أو النصرانية أو ملة من الملل سوى ملة الإسلام يقتل ولا يستتاب، والشافعي يرى أنهما يستتابان جميعًا ..).

والحق أن البربر كغيرهم من أمم الأرض، فيهم الخير والشر معا، ولا تتمحض نسبتهم إلى أحدهما.

نعم، ذكر المؤرخون أن انتشار الإسلام فيهم مر بكثير من العراقيل، حتى إن كثيرا من قبائلهم ارتدت عن الإسلام نحوا من اثنتي عشرة مرة[1]. ولكنهم بعد أن عرفوا الإسلام حق المعرفة، وخالطت بشاشته قلوبهم، تمسكوا به أشد ما يكون التمسك، ونافحوا عنه أمام أعدائه، وانطلقوا برايته يحملونها ما بين البرانس شمالا وأقاصي إفريقيا جنوبا، ولا يزالون -في الغالب- على هذه الحماسة الدينية إلى يوم الناس هذا.

إن بعض الكتابات قد تكون نية أصحابها حسنة، ولكنها قد تتخذ مطية لبعض دعاة العصبية، وسدنة العنصرية العرقية. فليحذر الأدباء من إرسال أعنة أقلامهم في بعض المراتع الوخيمة.

والحمد لله رب العالمين.

---

(1) اشتهر قول ابن خلدون في مقدمته (مؤسسة الرسالة - ت: مصطفى شيخ مصطفى - ص: 173) (قال ابن أبي زيد: ارتدت البرابرة بالمغرب اثنتي عشرة مرة. ولم تستقر كلمة الإسلام فيهم إلا لعهد ولاية موسى بن نصير فما بعده).

رحمك الله يا "سي ابراهيم"!

جمادى الأولى 1434

رحمك الله يا "سي ابراهيم"!

ويأبى لي قلمي أن أكتب اليوم في صدر رثائك، غيرَ هذا الاسم الذي به عرفتك منذ ميعة الصبا، فانتقش في صدري، ورسخت جذوره في فؤادي، حتى صار جزءا من كياني.. لا يفارقني.

فإن أفقدك اليوم، فلست أفقده، بل سيبقى ملازما للساني، وحاضرا في جناني، إلى أن يشاء الله.

رحمك الله يا ((سي ابراهيم))!

فلقد كنت لي في أيام طفولتي شعاعا من النور الإنساني الدافئ، يطل عليّ في سرداب أحزاني، من كوة لطيفة لا يدخل منها إلى قلبي شيء آخر غيره، فينتشلني من سدفة همومي، ويحملني على ذرّاته المتوهجة، إلى عالم من المرح الهادئ، والطمأنينة الغامرة.

رحمك الله يا ((سي ابراهيم))!

لقد كنتَ تمر بإطلالتك الباسمة على نفسي في زياراتك الخفيفة، كما يمر الوسميّ في أوائل الربيع على الأرض المنكمشة المتظلمة من قوارع الشتاء القاسي، فتنتعش وتخرج من رقدتها، كحال المتثائب الخارج لتوّه من سبات عميق.

رحمك الله يا «سي ابراهيم»!

لقد كنا في أسرتنا نعلم أننا نستطيع الاعتماد عليك - بعد الله ﷻ - في أمور حياتية كثيرة - وإن كنا لا نحتاج لذلك في كثير من الأحيان. ولكن ما أعذب الشعور بأن لك بين الناس أشخاصا تستطيع وضع رأسك بين أحضانهم، عندما يعوزك الأنيس، ويخذلك الرفيق.

رحمك الله يا «سي ابراهيم»!

رحمك الله وأجزل مثوبتك.. وأعانني الله على الصبر على فراقك.

أحزنٌ هذا الذي يُمض قلبي؟

كلا.. إن هذه الحروف الثلاثة التي تؤلف هذه اللفظة لا تكفي لترجمة هذا الشعور على الأوراق الكئيبة في بياضها المستفز.

وأصدقُ من كلمة (الحزن) أن يقال: إن فلذة من قلبي قطعت منه حين علمت بموتك، والأعجب أنني ما كنت أشعر بوجودها حتى انفصلت عنه إلى غير رجعة!

أدموع هذه التي تحمرّ من لظاها عيناي، وأنا أكتب هذه الكلمات في غفلة ممن حولي؟

كلا.. إنما أظنها طريقا لجأ إليها الفؤاد، ليهرب من تجلّده الذي يقسره عليه حبسه في سجن العادة والإلف..

إنما هي وسيلة القلب في التنفيس عن حزنه.. وأنّى له!

ثم لِمَ أحزن؟

ألأن فراق الأحبة أليم؟

إيـه.. كـم ابتُذلت هذه الألفـاظ حتى ماعاد لها في قلـوب الناس وقع، وحتى صارت ألسـنة المحزونين حقا تضيق بها، إذ تشم منها فوح الافتعال والكـذب، ثم تبحث عـن أفضل منها وأعظـم أثرا، فلا تجـد، لأن المعاني العظيمة تكره الانحباس في سجون الألفاظ.

لِمَ أحزن على فراقك يا "سي إبراهيم"؟

ألأنني سأفتقد في هذه الدنيا المشوبة بالآلام، بسمتَك؟..

ألأنني سأحن إلى كلماتك الحانية؟..

ألأنني سأجيل طرفي من حولي لأرى وجهك المضيء فيرجع الطرف إليّ خاسئا مهزوما؟..

أم تـراني أحزن لأنني قصرت في حقك، كمـا قصرت في حقوق أخرى كثيرة، حين تنازعت الواجبات جسـدي ونفسي، فلم يبق من سبيل لإرضاء طرف إلا على حساب آخر؟

أم لعلي أحزن اليوم لأن موتك يذكرني بمضيّ جزء من عمري.. فإنك ارتبطت في ذهني بطفولتي وشبابي، فكان ذهابك تذكيرا بذهابهما، وانقضاءِ ما كانا يحملانه من آمال وأحلام!

أذكر تلك السويعات الطيبة التي كنت أقضيها في دكان (السّي إبراهيم)

بحي (الطالعة)، حيث يصنع الشباشب (البلاغي) التقليدية المزركشة، التي تباع في "بازارات" مراكش الحمراء.

أذكرها اليوم بعد مضيّ سنوات كثيرة، كما لو كنت أعيشها الآن!

كنت أجلس في كرسي متواضع.. يحيط بي ركام الجلود وآلات العمل البدائية، ويمتلئ أنفي برائحة الجلود القوية، المشوبة برائحة الغراء التقليدي.. ويضاف إلى ذلك كله رائحة لذيذة منبعثة من الطنجرة التي يعد فيها طعام الغداء.

ولا أزال إلى الآن لا أعرف في الدنيا رائحةً أزكى في أنفي، من ذلك الخليط العجيب الذي كنت أفعم خياشيمي منه!

وكنت أراقب حركاته، وحركات العاملَين معه، وأتتبع مراحل تصنيع (البلغة)، فأنسى الدنيا من حولنا، كأن العالم كله قد اختصر في هذه الأمتار القليلة التي تحيط بنا..

وكان بين الفينة والأخرى يلقي عليّ طريفة، أو يداعبني بتكشيرة يتظاهر بها ليخيفني، ثم يعقبها بضحكة عالية، لا يزال صداها يرن بأذني الآن، وأنا أغالب دموعا تجزها هذه الذكرى..

وكنت كثيرا ما أتأمل هيئته المنيرة، بجلبابه المغربي الداكن، وعمامته البيضاء المخططة باللون البرتقالي، ولحيته البيضاء القصيرة. وكنت أحب أن أداعب بأصابعي ثؤلولا كبيرا في جذر إبهامه، صنعته كثرة استعمال المقص الأسود الضخم، فوق الجلود المتحجرة.

وكان يحدثني ببعض ما يقرؤه في بعض الكتب الشعبية، من الأساطير والحكايات المستغربة، فيحمسني لقراءتها من مصدرها، خاصة من كتابَي (اليواقيت العصرية) و(الرحلة المراكشية) لابن المؤقت المراكشي.

وقد كان - رحمه الله - محبا للعلم وأهله، على الرغم من أنه لم يحظ بقسط من العلم معتبر. وقد كان حبه للعلم يجعله يحضر بعض الدروس العامة في مدرسة ابن يوسف العتيقة، أيامَ كانت تعج بكبار علماء الحضرة المراكشية، وهنالك تعرف إلى والدي - حفظه الله - حين كان طالبا بالمدرسة المذكورة.

وكان ذلك نقطة الانطلاق لصداقة عمرٍ، امتدت فروعها المثمرة فوق أسرتنا كلها، فتفيأنا ظلها الوريف، مدة طويلة من الزمن.

وإن أنْسَ، فلست أنسى ما كان يكرره لي في مناسبات عديدة، فيقول مداعبا:

(إن أردت كلمة بالشلحة (أي الأمازيغية) فخذ اللفظة العربية و(سبّق التا ووخّر التا)).

يعني: اجعل في أولها تاء وفي آخرها تاء أخرى!

وكان يقول لي أيضا:

(تقايت = التمرة،

تركيست = الجمرة،

تموكايت = البقرة)

وكانت تعجبه هذه السجعة المتوافقة بين اللغتين: الأمازيغية والعربية!

وكنت أنا أزيد - من باب القياس اللفظي البريء لا غير -:

(تمغارت = الْمَرَة (أي المرأة، كما ننطق في لهجتنا))

وأضحك من ذلك التوافق.

وعلى ذكر الضحك، فلستُ أعجب إن خالط دموعي اليومَ شيء من الابتسام والضحك، وأنا أستحضر هذه الذكريات الجميلة.

لست أعجب فإن القلوبَ أمرُها عجيب.. وما سمي القلب قلبا إلا لتقلبه.. !

وإنني لأعلم أن هذا الرجل الصالح - فيما أحسب - قد أسعدني في حياته كثيرا، فلست أحب أن يقترن شيء منه بغير السعادة والرضا، ولو أن يكون يوم فراقه!

نَم هنيئا يا سي إبراهيم!

فإنني لأحسبك على خير.. وإنني لأرجو أن تنال عند الكريم الغفور دارا خيرا من دارك، وأهلا خيرا من أهلك..

وإنني لأسأل الله تعالى أن ييسر لي لقاء بك في مقاعد الرضوان، عند المليك الرحيم، ﷻ.

وحينئذ - وقد زالت الهموم وشفيت الآلام - نقول سويّا، ومعنا أحبابنا من أهل الإيمان:

الحمد لله رب العالمين.

كيف أكون أديبا؟

ذو القعدة 1434

قد يبدو هذا السؤال غريبا، فإن الأدب عند جمهرة الناس موهبة ربانية، لا سبيل إلى اكتسابها. فلا يصح السؤال إذن عن المنهج اللازم اتباعه لتكون أديبا.

وهذا الكلام فيه قدر كبير من الحق، ولكنه يخفي وراءه قدرا غير قليل من الباطل المستتر!

فقد صارت دعاوى الموهبة سلاحا قاتلا للأدب من وجوه:

أصبح شداة الأدب يمتنعون عن القراءة والمران الأدبي، ويستعجلون الإبداع، بدعوى أن لديهم موهبة تبيح لهم ذلك.

وصار أنصاف المتأدبين وضعفة المثقفين يعتلون المنابر الأدبية، ويسوّقون إنتاجا أدبيا سخيفا يمسخ الأذواق، ويطمس الأخلاق، لا لشيء إلا لأن لديهم - فيما يدّعون أو يُدّعى لهم - موهبة تغنيهم عن الاجتهاد والتحصيل.

جماع تحصيل الملكة الأدبية:

اعلم أن اكتساب الملكة الأدبية لا يأتي إلا بعد مران كثير، واطلاع كبير؛ مع وجود حس أدبي لطيف، وذوق شاعري منيف.

فأما المران والاطلاع فسأخبرك بشيء مما ينبغي فعلُه لتحصيلها، وأما

ما سواهما - وهو الموهبة - فهو - على كل حال - أمر رباني، وتوفيق إلهي، يصعب سبره وضبطه، ولا سبيل إلى اكتسابه، وإن كان من الممكن الدربة على الإحاطة ببعض أطرافه.

ولذلك قد يتبحر المرء في العلوم اللغوية، والمصنفات الأدبية، ولا يطاوعه لسانه على قول بيت واحد من الشعر، كما يذكر عن أبي علي الفارسي، إمام زمانه في علوم اللغة، خاصة في صنعة النحو والصرف:

(قال أبو القاسم الأندلسي: جرى ذكر الشعر بحضرة أبي علي الفارسي وأنا حاضر، فقال: إني أغبطكم على قول الشعر؛ فإن خاطري لا يوافقني على قوله على تحقيقي في العلوم التي هي موادّه، فقال له رجل: فما قلت قط شيئاً منه؟ قال: ما أعلم أن لي شعراً إلا ثلاثة أبيات في الشيب!).

إذا علم هذا، فإن تكوين الأديب يمر - في نظري - على ثلاث مراحل:

- التكوين العلمي.
- والاطلاع الأدبي.
- والدربة النثرية والشعرية.

وهذه المراحل ليست مرتبة في الزمن، بل المتعين فعلها في آن واحد. فإنك لو أخرت التمرن مثلا إلى أن تستكمل بضاعتك من الاطلاع العَلمي والأدبي، فسيضيع عليك الكثير من الوقت، الذي لا سبيل إلى استدراكه.

وهذا بيان لهذه المراحل.

المرحلة الأولى: التكوين العلمي:

لا بـد للأديب مـن أن يكون مطلعا على مجموعة مـن العلوم اللغوية، وبعض العلوم الأخرى مما يدخل في ما يسمى الآن (الثقافة العامة).

فأما علوم اللغة، فلا مناص له من التمكن منها. ومن بدع العصر وآفاته القاتلة التي بها انحط الأدب، وكسـدت سـوقه: أن الأدباء صاروا ينطلقون إلـى الكتابة الأدبيـة، وباعهم في اللغة ضعيف جدا. ولـم يكن الأمر كذلك في القديـم، بل كان الشـعراء والخطباء يرحلون في طلـب اللغة إلى مواطن الأعراب، ومشايخ الفصحى، يكرعون من مناهلهم. وقد كان أمثال المتنبي والمعري وابن الرومي أصحاب ثروة لغوية عظيمة جدا.

وأذكر أن أحد الطلبة عرض على شـيخنا مصطفـى النجار قصيدة من إبداعه، لينظر فيها وينقدها له، فسأله: هل درسة ألفية ابن مالك؟ فلما أجابه بالنفي، قال له: إذن لا أنظر في شعرك. أو كلاما نحو هذا!

نعم، قد يقال بأن في هذا الجواب نوع مبالغة، ولكن المعنى المسـتفاد أن علـى طالب الأدب أن يأخذ حظا وافرا من علوم النحو والصرف واللغة والبلاغة والعروض والقوافي.

فالحـد الأدنى في النحو والصرف: إتقـان الأحكام الواردة في ألفية ابن مالك ولامية الأفعال له.

وفي البلاغـة: فهـم الجوهر المكنون ودراسـة شـروحه، مـع الاعتناء بكتب البلاغة الأصلية، وبتطبيق القواعد البلاغية على القرآن الكريم.

وفي العـروض والقـوافي: إتقان قواعـد النظم العربـي، ولو دون حفظ المصطلحات كلها.

وفي اللغـة: ينبغي أن يكون للطالـب ورد من القراءة في بعض المعاجم المشـهورة، وهـي بهذا الترتيـب: المصبـاح المنير (أو مختـار الصحاح أو هما معا) فالقاموس المحيط، فلسـان العرب وتاج العروس، دون أن يغفل المعاجـم الأصليـة التي تقل شـهرة عن الأولـى، مثل: تهذيـب الأزهري، وكتابَي ابن سيده، ومجمل ابن فارس.

وبما أن العربية لا تنفك عن محضنها الأصلي الذي هو القرآن الكريم، وحديث النبي الأمين ﷺ، فلا بد أن يشتغل طالب الأدب بهذين، وبالكتب والعلوم التي تدور عليهما، دون أن يطالب بالتخصص في ذلك.

وفي تاريخ الأدب العربي شـواهد كثيرة، تدل على تأثر شـعراء العربية الفحول، وأدبائها المرموقين، بالعبـارة القرآنية والنبوية خصوصا، وبعلوم الشريعة الإسلامية عموما، في تعبيراتهم الأدبية.

المرحلة الثانية: الاطلاع الأدبي:

على طالب الأدب أن يكون صاحب اطلاع واسع على الإنتاج الأدبي العربـي والعالمـي، القديم والحديث. لأن الأديب لا يبـدأ من فراغ، وإنما غايته أن يضع لبنات من صنعه، فوق بناء شـامخ أقامه الأدباء من قبله. كما أن الاطـلاع على إبـداع الآخرين - خاصة من الفحول الراسـخين - يصقل الموهبة، وينمي الملكة.

ويدخل في باب الاطلاع هذا ما يلي:

- حفظ جملة صالحة من أشعار العرب التي اتفق النقاد على أنها في ذروة التعبير الأدبي الراقي، مثل: المعلقات الجاهلية، وأكثر ديوان الحماسة والمفضليات والأصمعيات ونحوها، مع مختارات من شعر الفحول عبر تاريخ الأمة. وقد يغني في هذا الباب أن يحفظ الطالب كتاب (المنتخب من أدب العرب) فإن فيه زبدة الشعر العربي الراقي.
- قراءة الدواوين المعروفة، خاصة في العصر العباسي مثل دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام والمعري والشريف الرضي وما أشبهها. ثم دواوين بعض شعراء النهضة الحديثة مثل البارودي وشوقي وحافظ وبعض شعراء مدرسة الشام.
- إدمان النظر في كتب الأدب الأصلية المشهورة، مثل: أغاني الأصبهاني، وكامل المبرد، وأمالي القالي، وأدب الكاتب لابن قتيبة، والبيان والتبين للجاحظ.
- قراءة مؤلفات كبار أدباء العربية من القدامى والمحدثين، وعلى رأس المتقدمين: الجاحظ وابن المقفع والتوحيدي. وعلى رأس المحدثين: الرافعي ومحمود شاكر والمنفلوطي والعقاد وغيرهم.
- قراءة كتب الأدب الموسوعية الجامعة، مثل: زهر الآداب للحصري، وصبح الأعشى للقلقشندي، ونهاية الأرب للنويري، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ونحوها.

- قـراءة مـا تيسـر مـن الأدب العالمـي، خاصـة في مجـال القصة والروايـة، فإنـه ميدان أبدع فيـه الغربيون، وليـس هو من صميم أدبنا العربي.

المرحلة الثالثة: المران والتدريب:

أما التمرن على الكتابة نثرا وشعرا، فله طرق متعددة، منها:

- محـاكاة أسـلوب كاتـب معيـن، بعـد الاطـلاع علـى ما تيسـر مـن كتاباتـه. وأحـرى الكتـاب بالمحاكاة مـن كان ذا أسـلوب متميـز الخصائص، في ألفاظـه وتراكيبه ومعانيـه، كالجاحظ من المتقدمين والرافعي من المحدثين.
- أن تعمد إلى كلام منثور يحمل معنى لطيفا، فتنظمه. أو بالعكس، أن تنثر قصيدة أو نتفة شعرية.
- أن تأخذ نصا نثريا فتقرأه بترو وتمعن، ثم تشيح نظرك عنه وتعيد كتابته بأسلوبك.
- أن تعيد كتابة نص شـعري بعد تغيير قافيته أو بحره، أو تغييرهما معا.
- أن تلـزم نفسـك بكتابـة خواطر أو مقـالات دوريـة (كل يوم أو كل أسـبوع) في معاني الحياة التـي تحيط بك، على طريقة (فيض الخاطر) لأحمد أمين.

وعلـى الطالـب أن يعرض ما يكتبـه على أهل الاختصـاص، ليقوموا الاعوجاج، ويرشدوا إلى مواضع الإصلاح.

ثم لا بد مع هذا كله من همة عالية، ووقت طويل، وجهد كبير.

والله الموفق.

دور العربية في البعث المنشود بين الواقع والآمال

المحرم 1432

إن انبعاث الأمم التي تراكمت عليها حقب زمنية متطاولة من الجمود والهوان، يمر - في العادة المطردة التي لا تكاد تنخرم - عبر إحياء القيم الفكرية والثقافية التي منها قوام حياتها، وبها تحصيل تميزها الحضاري.

والأمة الإسلامية لا تشذ عن هذه القاعدة، فإنها سنة كونية دل عليها استقراء تاريخ صعود الحضارات وسقوطها.

ولا شك أن اللغة هي أعظم هذه الأسس الفكرية والثقافية، التي يمكن توحيد الأمة على بساط مراعاتها، وحفظ أصولها الكبرى[1].

وإذا كان الأمر صحيحا في الأمم كلها، واللغات جميعها - وهو صحيح بلا ريب - فكيف يكون الحال إذا كانت الأمة هي الموصوفة في كتاب الله تعالى بأنها ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، وإذا كانت اللغة هي تلك التي اختارها الله ﷻ لتكون وعاء لأشرف كلام، وأفصحِه وأسماه؟

(1) الاعتناء باللغة كان - ولا يزال - قاسما مشتركا بين كل الدعوات إلى إحياء الأمم والقوميات. ولا يعرف التاريخ أمة انبعثت من رقدتها وهي ترطن بلغات أعدائها وخصومها. وهذه دولة اليهود في فلسطين أحيت لغة ميتة غير متداولة هي العبرية، لا لشيء إلا لإيجاد اللحمة الجامعة بين أشتات المهاجرين اللقطاء.

إن الأمة الإسلامية - بعربها وعجمها - عاشت أعظم مظاهر عظمتها، وأسمق تجليات رقيها، حين كانت متحلقة حول مائدة اللغة العربية، تنهل من صفاء معينها الذي لا ينضب، دون أن تغفل اللغات الإسلامية[1] الأخرى، تعلما وتعليما. وإن الأمة بعد ذلك عرفت أحلك ليالي ذلها، وتخلفها عن ركب الحضارة المنطلق، حين تركت هذه اللغة الجامعة الموحِّدة، وانشغلت عنها بلغات قومية متنافرة، ثم بعد ذلك بلغات الأعداء المتربصين.

أهمية العربية:

ولذلك فيمكن القول إن اهتمامنا بالعربية اليوم هو دعوة إلى ربط حضارتنا المتلجلجة في مخاض انبعاثها العسير، بتلك الأسس الراسخة التي قامت عليها حضارتنا الشامخة في تلك الأزمنة الراقية[2].

إن إتقان العربية مظهر ساطع للارتباط النفسي بالقرون المفضلة، في علمها وعملها.. في دعوتها وجهادها.. في انتصاراتها وإشعاعها الحضاري العالمي. لأن العلمَ بأحوال المقتدى به أول درجات الاقتداء، والترجمةُ

(1) أقصد باللغات الإسلامية تلك اللغات التي حملتها إلى دائرة الإسلام شعوب غير عربية، كان لها في الإسلام قدم صدق لا يتمارى فيه، كالفارسية والتركية والكردية والبربرية، ونحوها. وهي كلها لغات بينها وبين العربية علائق تأثير متبادلة لا يمكن حجبها.

(2) ولا نحتاج إلى التنبيه على أن المراد بذلك الربط، توثيق العرى الفكرية، لتمثل الصواب في العقائد والأفعال، مما يتجاوز حدود الزمان؛ وليس المراد قطعا الجمود فيما يكون الأصل فيه الحركة التجديدية الدائبة.

- باللغات الإسلامية أو باللهجات العامية المنحرفة - حجاب كثيف يمنع الفهم الدقيق، والتفاعل الإيجابي المتكامل.

ثم إن هذا الارتباط المنشود يصبح أكثر حساسية، حين يتعلق الأمر بنصوص الوحيين. فالمسألة حينئذ تصبح مسألة معرفة مراد الله تعالى من البشر المتلقين للخطاب القرآني، والعلم بما يطلبه الشارع من عموم المكلفين. وبعبارة أوضح، فإن فهم نصوص الكتاب والسنة لا ينفك عن المعرفة الشاملة باللغة العربية، التي هي وعاؤهما ومحضنهما.

وبعد نصوص الوحي، يأتي ذلك التراكم المعرفي الهائل الذي دبجته أنامل علماء الأمة، عبر أكثر من خمسة عشر قرنا من الإنتاج الفكري الدائب، مما لا نظير له في أمة من الأمم الأخرى. إن الاستهانة باللغة العربية، أو محاولة تخريب أصولها بدعوى التجديد، تفريط إجرامي في تراث حضاري شامخ، لا يمكن النهل من معينه الثر إلا من طريق هذه اللغة.

ونحن أخيرا عندما ندعو إلى الوحدة الإسلامية الجامعة، نؤمن بأن ذلك لا يكون إلا بإحياء التوحيد اللغوي بين المسلمين، عبر وشيجة اللغة التي اصطفاها الله تعالى لكتابه، واختار خاتم رسله من أهلها. ويحرجني كثيرا أنني أحتاج في بعض البلاد الإسلامية التي أزورها إلى الكلام بالانجليزية لتحصيل التفاهم. أليس من الأولى أن تكون الواسطة بيننا لغة القرآن، التي هي لغتي الأصلية، ولغة المسلمين الدينية - إن صح التعبير؟

وليس معنى ذلك أن نغفل اللغات الإسلامية الأخرى، أو نهمل دورها الحضاري؛ ولكن ينبغي أن تكون العربية محورا توحيديا نابعا من الإسلام، تتفرع منه اللغات الأخرى.

الواقع:

هذه إذن أهمية اللغة العربية، في التركيب الإجمالي للبعث الإسلامي. فأين وصلت الدعوة إلى التمسك بها في واقع الأمة؟

لا نبعد النجعة كثيرا إن قلنا إن الأمة تعيش أزمة لغوية خانقة، ليست بمعزل عن الأزمة الحضارية العامة التي تتخبط فيها.

ويمكننا أن نجمل الإشكالات اللغوية في محورين كبيرين، في كل منهما مسائل كثيرة، سنعرضها باختصار، مع إيماننا العميق أن عرض كل مسألة منها وتحليلها يحتاج إلى مقالات متعددة، فضلا عن مقال واحد.

معاول الهدم الخارجية:

خرج المحتل الأجنبي من بلاد المسلمين بعساكره، وخلف وراءه من ثقافته وحضارته الشيء الكثير. وأخطر ما ترك: لغته التي صارت من بعده الأداة الفاعلة للارتباط الثقافي الوثيق بين الأجنبي ومستعمراته السابقة.

ولم تعان اللغة العربية قط في تاريخها الطويل من ضيم مثل هذا الذي تعاني منه بسبب هذه اللغات المتسلطة على رقاب أهل القرآن. فقد تحرفت بسببها تراكيب العربية، وتغربت ألفاظها، وذابت أفانين بلاغتها؛ بل فسدت أذواق أهلها في الأدب والشعر، وفي كل فن من فنون القول.

واتسع الخرق على الراقع حين تناسلت العلوم العصرية والتقنيات الحديثة، الوافدة من بلاد الغرب بجحافل مصطلحاتها التي لا تحصر، ووجد القائمون على اللغة العربية أنفسهم في دوامة لا تني من التعريب،

الـذي لا أثر لـه في الواقع. ممـا دفع أكثر المسـلمين إلى التخلـي أكثر عن العربية، والتشبث بلغات الغرب.

معاول الهدم الداخلية:

وبمقابـل هذا الغـزو العاصف من الخـارج، وجـدت في داخل البلاد الإسـلامية دعـوات هدامـة، تصدر عن مقاصد مشـبوهة، وتتدثر بمسـوح البحـث العلمـي المتجرد، مع أنهـا لا تخفي غالبـا ارتباطها بدوائـر القرار الاستعماري. فمن ذلك:

- الدعوة إلى العامية، واسـتبدالها بالفصحـى. وهي دعوة قديمة تصدى لهـا أئمـة اللغـة في العصـر الحديـث، ولكنها تظهر رأسـها بيـن الفينة والأخرى.
- الدعـوة للكتابة بحـروف الهجاء اللاتينيـة، وإلغاء الحـروف العربية، بدعوى صعوبة قواعد الإملاء.
- الدعوة لتجديد قواعد العربيـة في النحو والصرف والعروض وغيرها. والمقصود هنا دعوات الهدم المتسـترة بحجاب التجديد، أما التجديد البناء فمطلوب محمود.
- الدعوة إلى التيسير في الخطاب الدعوي[1]، لجذب الجماهير الغافلة. مما يُولد لغة هجينة تساهم في تدني الذوق اللغوي العام.

---

(1) المطلوب من الداعية تعليم الجماهير ورفع مستواها الفكري، دون أن يقع في مزلق الخطاب النخبوي المتخصص. والمشاهد اليوم نوع من التيسير المجحف باللغة والفكر، يسف فيه الداعية إسفافا بالغا، بدعوى الهبوط إلى مستوى الجمهور.

ومن معاول الهدم الخطيرة الدعواتُ القومية التي تتبنى دعوة عنصرية مقيتة، تفرق بين المسلمين عربهم وعجمهم. إن الخلط في الوعي الجماعي بين دعوتنا النقية من شوائب العصبية، وبين هذه الدعوات القومية الكالحة، ذات الأبعاد السياسية المشبوهة، يسيء كثيرا إلى مستقبل اللغة العربية ودورها في البعث المنشود.

التطلعات

هكذا الواقع كما يبدو للمتأمل، مع أن ما أغفلتُه من الصور القاتمة أكثر مما ذكرته!

لكن خطورة المرض لا تزيدنا إلا إصرارا على التحدي بالبحث عن أفضل أنواع العلاج. والذي يظهر من تدبر الواقع، واستشراف المستقبل، أن العلاج يكمن في المحاور الآتية:

أولا:

إن أول ما ينبغي أن يعتقده كل حامل لهمّ هذه القضية اللغوية، أنها من الأولويات العظمى، وليست من قبيل الترف الفكري، أو الكمال الثقافي. إنها باختصار قضية مصيرية: قضية حياة أو موت من الناحية الحضارية. وإذا كان الأمر كذلك، فمن الغلط الشنيع أن يوزع عليها فتات الأوقات والجهود[1].

---

(1) درج علماء الشريعة قديما على جعل تعلم العربية أول ما يبدأ به الطالب بعد القرآن؛ بل ذهب جماعة إلى تقديم العربية على القرآن، لأنها أداة فهمه. هذا في زمنهم الذي لم يكن للعربية منافس معتبر من اللغات الأجنبية، فكيف يكون الحكم في زماننا؟

ثانيا:

إن إحياءَ العربية وإشراكها في البعث الحضاري للأمة: قضيةٌ إسلامية، ينبغي أن يحمل لواءها العاملون للإسلام من العلماء والدعاة والإعلاميين وقـادة الجماعات والجمعيات وغيرهـم. ولا ينبغي أن تترك القضية بأيدي دعاة القومية، فإن إفسادهم في هذا الباب أكثر من إصلاحهم. وأهل الإسلام أقدر من غيرهم - لأسـباب موضوعية وذاتيـة - على القيام بواجب البعث اللغوي.

ثالثا:

إن المجامع اللغوية التي تنتشـر في أرجاء العالم العربي، لم تعد قادرة علـى تحقيـق الأدوار التي أنيطـت بها. وذلك إمـا لقصور ذاتي بسـبب قلة انفتاحهـا على علماء اللغة المبرزين، واكتفائهـا في أحايين كثيرة بأصحاب الشـهادات الأكاديمية بقطع النظر عن شرط الكفاءة؛ وإما لقصور منهجي، جعلها تكتفي بوضع قوائم التعريب للمصطلحات الحديثة، في انفصام كلي عـن الواقع اللغوي للأمة، التي صار كثير من أفرادها ينظر إلى هذه الألفاظ المستحدثة بريبة أو سخرية.

إن معالجة هذيـن النوعين من القصور كفيل بإحياء كثير مما اندثر من مباهج هذه اللغة الكريمة.

كما أن المجامع ينبغي أن تضطلع بدور الترغيب عبر تبني المسابقات الأدبيـة واللغوية المحكمة، التـي يمكنها أن تثمر كتبـا ومقالات ودواوين شعر، وأبحاثا لغوية، في مستوى لغة القرآن.

رابعا:

عرفت الأمة منذ عصر النهضة الحديثة مجهودات كثيرة في مجال التجديد اللغوي، لكن كثيرا منها ترك سبيل كل حركة تجديدية ناجعة، أي سبيل تيسير الأساليب، واستخدام التقنيات الحديثة في العرض، وتقريب كنوز التراث إلى الجماهير المتعطشة للمعرفة؛ وسلك طريق الهدم المنهجي للمضمون الزاخر الذي أظهر كفاءته عبر القرون المتطاولة!

إن تيسير النحو أو البلاغة أو العروض، أمر مطلوب، لكن على أن يكون بناء يرمم ما تخرب، ويزين ما أفسدته قرون الجمود، لا أن يكون هدما واستئصالا، يقطع صلة حاضر الأمة بماضيها[1].

خامسا:

للتعليم دوره الذي لا يجحد في البعث اللغوي المرجو. ومن أعظم المهلكات الحضارية ما نراه من تشتت لغوي ذريع في مدارسنا، يعاني منه أطفال الأمة.

إن أذهان الأطفال كالعجين الذي يمكن أن يشكله المربي على أية هيئة يشاء. فإذا حشي باللغات الأجنبية، قبل التمكن من لغته الأصلية، أوشك هذا الذهن أن يتنكر لثقافته ودينه، ويحن إلى ثقافة الآخرين وحضارتهم، كما هو مشاهد في متغربي الأمة، الذين فقدوا الأواصر التي تجمعهم بأمتهم، حين فقدوا - منذ الصغر - تعلقهم بلغة الضاد.

(1) للدكتور محمد محمد حسين كلام طيب في إنكار هذه الدعوات الهدامة، نقله صاحب (أعلام وأقزام) 1/ 468-470.

ينبغي أن يتحرر التعليم في بلداننا من عقدة اللغة الأجنبية، التي خلفها المستعمر وراءه، وترك معها سدنة يقومون بواجب المنافحة عنها، وتعبيد السبل أمامها إلى أذهان الناشئة.

سادسا:

إن على الدعاة الذين ينهدون بأعباء نشر كلمة الإسلام، وتبليغها إلى القلوب والعقول، أن يجعلوا من العربية السليمة من أوضار العجمة، وسيلتهم الأولى في خطاب الجمهور، لا يعدلون عنها إلى العاميات المبتذلة التي تفرق ولا توحد، إلا لضرورة معتبرة، أو حاجة متيقنة.

أليس غريبا أن تجد الفضائيات الإسلامية تعج بألوان من العامية، التي تؤذي الآذان والعقول، وتمسخ الوعي الفكري؛ بدلا من أن تكون منارة لنشر العربية، وتعليمها وحث الناس على حبها والتعلق بها، كما يتعلق الغريق بطوق النجاة؟

لم لا تتبنى هذه القنوات برامج منهجية لتعليم العربية لغير العرب من المسلمين، وللعرب بالنسب دون الثقافة، كما تتبنى الوعظ الجماهيري، والتربية العامة؟

سابعا:

تميز عصر النهضة الأدبية الحديثة بصدور مجلات أدبية ولغوية سامقة، تبنت جمعا من كبار الأدباء والباحثين، بثوا في الأمة ثقافة عربية رصينة، ما يزال أثرها غضا طريا.

إن من أعظم ما ينبغي العناية به: خلق مجلات لغوية وأدبية دورية ومحكمة، تقتنص الأدباء المتمكنين، واللغويين المتمرسين، وتنشر لهم ما تجود به قرائحهم، فتنتشلهم من حمأة الخمول الذي تردى فيه أكثرهم، ومن ذل الهجران الذي يلقونه من معاصريهم، حتى صار كثير منهم يكتبون ولا ينشرون؛ فتضيع مواهب زكية، ومقدرات عليّة.

لقد تعب مثقفو الأمة الرصينون من هذه الدوريات التي تنشر الأدب الحداثي الذي لا يكاد يفهم، والدراسات اللغوية التي تهدم لذات الهدم، وتتنكر للقديم لأنه قديم!

وإذا كانت المجلات تعاني من هموم النشر، بسبب غلاء أسعار الطباعة، وقلة ذات يد القارئ العربي، فإن كثيرا من أصحاب الأموال الغيورين على لغة القرآن لا يمانعون في تبني مثل هذه المشروعات العظيمة. ثم إن في النشر على الشبكة العنكبوتية - إذا روعيت فيه ضوابط الجودة - ما يفرج كثيرا من هذه الهموم.

هذه بعض المقترحات التي يكفل الأخذ بها - بجد وحرص - أن يعيد للعربية مجدها، ويجندها من جديد لتشارك في البعث الإسلامي الشامل.

دفاع عن الفصحى

جمادى الأولى 1432

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

فإن الدعوة إلى العامية من أعظم معاول الهدم التي تتربص باللغة العربية. وقد نشأت هذه الدعوة منذ أكثر من قرن من الزمان، لكن تصدى لها أكابر العلماء والأدباء، فقبروها في مهدها، وجعلوا عامر ديارها يبابا، إلا قليلا مما لا تأثير له.

وازدادت هذه الدعوات إلى العامية ضعفا وركودا، حين انتشرت في الأمة بذور البعث الإسلامي، فانطلق الدعاة والعلماء منذ عقود يدعون إلى إنقاذ الفصحى في ضمن دعوتهم للإسلام، موقنين بأن العربية وعاء هذا الدين، وأن ضعفها في النفوس لن تكون نتيجته إلا انقطاعا عن الإسلام، وانحسارا لحسن التفقه في الدين.

واستمر الأمر على هذا النحو إلى أن ظهر في السنوات الأخيرة بعض الدعاة الذين اتخذوا من العامية (المصرية خصوصا) لغتهم الأولى التي لا يبغون عنها في خطابهم بديلا. وانتشر هذا الفعل في دروس الوعظ بالمساجد والفضائيات، بل في خطب الجمعة وبعض دروس العلم.

وكنا نحسب الأمر "تقليعة" جديدة، لن تعتم أن تنزوي في جحرها الذي خرجت منه، حين تمر عليها حقبة من الزمان، وتستنفذ أسباب وجودها.

وكنا نظن أن هذا كله لا يعدو أن يكون خاصا بمن يسمونهم (الدعاة الجدد)، الذين اصطنعوا لأنفسهم أسلوبا جديدا في الدعوة الدينية، يتنازلون فيه عن بعض الأسس والثوابت، رغبة في كسب ود الناس، وتمام التقرب من أصناف غير المتدينين.

فقلنا - على شيء من المضض غير قليل -:

لا بأس! ولنكن (ماكيافلليين) قليلا، فنقبل هذه الوسائل المرذولة، طلبا للغايات النبيلة!

لكن الخرق اتسع على الراقع، وانتقل الداء من (الدعاة الجدد) إلى (الدعاة القدامى)، بل إلى العلماء المتمكنين، المتصدرين لإفادة الناس وتعليمهم.

وانتقلت عدوى العامية من مجالس الدعوة العامة، إلى مجالس العلم الخاصة. بل صرنا نرى - ولولا أنني رأيت ذلك بعيني ما صدقته لشناعته - درسا في النحو العربي، يلقيه صاحبه بالعامية!

فقلنا: ما بقي للسكوت مجال، فإن هذه اللغة التي شرفها الله ﷻ، فجعلها لغة كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يده ولا من خلفه، أحب إلينا من فلان وعلان، كائنا من كان.

أتعجب كثيرا حين أسمع كثيرا من أحبابنا المصريين من العلماء

والدعاة، يحرصون على إلقاء دروسهم بالعامية المصرية، ولعلهم يعولون كثيرا على أن غالبية العرب يفهمون اللهجة المصرية.

ووجه العجب أن المصريين هم حماة الفصحى قديما وحديثا. وما أزال كلما سئلت عن تعلم النحو، أرشد السائل إلى كتب ابن هشام الأنصاري، مع هوامش محيي الدين عبد الحميد. فإن طلب مني ثالثا، زدته الشيخ خالدًا الأزهري.

وهؤلاء المصريون الثلاثة – s وأجزل مثوبتهم - أُلين لهم علم النحو في العصور المتأخرة، كما ألين لداود الحديد. فما أعظم فضلهم على علوم العربية، وما أعظم تقصيرنا في حق كتبهم وتحقيقاتهم العلمية!

وما أزال أيضا إذا سئلت عن تعلم أساليب الكتابة العصرية، وعن أفضل كتب الأدب الحديث، أرشد السائل إلى كتب محمود شاكر والرافعي ومبارك والمازني والعقاد، وأضرابهم، من عظماء مصر الحديثة.

وإذا كانت الدعوة إلى العامية قد نشأت في أوائل القرن العشرين عند بعض المتغربين من أهل مصر، فإن أعظم الردود العلمية الرصينة على هذه الدعوة الرعناء، إنما ولدت وترعرعت واشتد عودها في مصر أيضا.

وإذا كانت مصر قلب الأمة النابض كما لا يخفى، فإن الناس في كل مكان من ربوع هذه الأمة تبع للمصريين في الخير وفي الشر.

ولذلك صرنا نرى في المغرب مثلا نابتة (لا تزال قليلة) تتشبه بالقوم في الكلام بالعامية. وصرنا نسمع أيضا بعض الدعاة من أهل الجزيرة العربية يرطنون بعاميتهم أيضا.

ولنتخيل ماذا سيحدث لهذه الأمة المتشرذمة، إذا صار العلماء والدعاة من أهل المغرب وشنقيط والجزائر ونجد والعراق والشام واليمن يلقون دروسهم، كل واحد بعاميته التي نشأ عليها في بلده. ما الذي سيبقى حينئذ من وحدة هذه الأمة؟

بل ماذا سيبقى من هذه اللغة، التي يتكالب عليها الهدامون من كل حدب وصوب، حتى إذا اطمأنت إلى من تحسبهم أصدقاءها وحماة بيضتها، إذا هم يقلبون لها ظهر المجن، ويطعنونها في ظهرها، طعنة نجلاء، لن تفيق منها إلا أن يتداركها الله برحمته.

قد يقول قائل: أنت تغلو في وصفك، ونحن إنما نريد التيسير على الناس، لتسهيل التواصل معهم.

وأنا أجيب: أخشى أن هذا الأمر تلبيس شيطاني، لا نصيب له من الصحة. وإلا فلتخبرني - وفقك الله لمرضاته ـ ما الفرق في معيار التيسير هذا بين أن يقول الداعية: (احنا عاوزين نشرح الحتة دي) وبين أن يقول (نحن نريد أن نشرح هذا الأمر)؟

وهل يوجد بين عوام الناس من لا يفهم الجملة الثانية، مع كونه يفهم الأولى؟

وأنا إنما أقول هذا تنزلا، وإلا فإن أغلب جمهور هؤلاء الدعاة ليسوا من الأميين، بل هم في غالب الأحيان متعلمون، ولو إلى حد أدنى يمكنهم من فهم الكلام العربي الميسر.

فإن قيل: القوم متعلمون، ولكنهم متغربون، تربوا في أحضان الثقافة الأمريكية، أو رضعوا لبان الفرنكفونية، فلا سبيل إلى مخاطبتهم بالعربية.

فالجواب: المتغربون لا يفهمون (أو يتعمدون ألا يفهموا) عامية ولا فصحى، وحق هؤلاء إن أردت التواصل معهم أن تلبس عباءة موليير، أو ترتدي سربال شكسبير لتخاطبهم بلسانهم، الذي لا يرفعون بغيره رأسا. وإنك - لو فعلت - لن تجدني منكرا ولا منتقدا.

ثم إن موضوع الدرس يكون في أحيان كثيرة غير مناسب للعوام، بل هو موجه للمثقفين عموما، أو إلى المنتسبين للتيار الإسلامي خصوصا، بل قد يكون موجها لنخبة مخصوصة منهم، وهو مع ذلك بالعامية!

فأين المصلحة في ذلك؟

يقولون: نحن بهذا نصلح الشباب، ونعالج انحرافاتهم.

نقول: لعل.. ولكنكم تنزلون إلى مستواهم بدلا من أن ترقوهم إلى مستواكم. وإذا استمر الأمر على هذا، فإنه يوشك أن تستووا معهم، فيستقر الجميع في درك الجهل، بدلا من أن ترتفعوا أجمعين إلى مراقي العلم.

فإن قلت: وهل هذا النزول ممكن، ولو افتراضا؟

فالجواب: نعم، فإن العربية إنما تكتسب بالممارسة، ويحافظ على رونقها بالممارسة أيضا. وإن من يترخص بالإكثار من الكلام بالعامية، سيأتي عليه زمان إذا أراد فيه أن يتكلم بالفصحى وجد اللحن يسابقه إلى تعبيراته، والخطأ يلاحقه في تراكيبه. فيضطر حينئذ إلى الرجوع إلى العامية

"المحبوبة" حيث لا يلحّنه أحد، وحيث هو مالك زمام كلامه، يقول ما يشاء، كما يشاء!

فإن قال قائل: إن العامية تتيح لنا يسرا في التعبير لا تتيحه الفصحى، التي تتميز بصرامة قواعدها، ووعورة مسالكها. ونحن محتاجون للانطلاق في التعبير، دون قيد تفرضه علينا هذه القواعد، ولا رهبة من أن تتسلط على رقابنا أسنّة التخطئة.

فإننا نقول: إذن فالعيب فيك لأنك تصدرت قبل أن تتأهل، ولا تأهل في العلم بدون علم العربية، باتفاق من يعتد بخلافه ووفاقه.

ولا تغتر - يا صاحبي - بما حصلته من معلومات، إن لم تكن قبل ذلك قد حصلت طرفا صالحا من علوم العربية، فإنها الأساس الذي يبنى عليه هيكل العلوم الشرعية كلها. وكل بناء على غير أساس يوشك أن ينهدم.

وهل أُتي أهل البدعة قديما إلا من عُجمتهم (وقديما قال أبو عِمرو لعمرو: مِن العجمة أتيت، في قصة مشهورة، تراجع في مظانها)، وهل العجمة إلا ما أنت فيه؟ أم تحسب العجمة في النسب لا في اللسان؟

وقد كان الطفل في مدارسنا العتيقة يعَلّم القرآن ثم العربية. بل قال بعض العلماء بتعليم العربية قبل القرآن، لأنها أساس فهمه.

وهؤلاء علماؤنا في تاريخ هذه الأمة العظيم، لا يتخصصون في الحديث أو التوحيد أو الفقه، إلا بعد أن يكونوا قد تعلموا علوم العربية، وأتقنوا منها ما لا بد من إتقانه.

أما الآن، فصرت لا تستنكر أن ترى عالما أو داعية، يشتغل بالحديث أو يتصدر للفتوى، وهو لا يستطيع أن يعرب جملة، ولا يعرف المقياس الصرفي لكلمة. وإذا قرأ في كتاب من كتب التراث، في التفسير أو شرح الحديث أو الفقه، وجاء ذكر دقيقة من دقائق العربية - وما أكثر ذلك في كتب التراث - لوى وجهه، وانصرف عنها، كأن المخاطب بذلك غيره، وكأنها من ترف العلم، وفضلات المعارف.

فإلى أين نحن صائرون، أيها الغيورون على العلم والدين؟

ثم إن هذا الباب الذي فتح في ميدان الخطابة والتدريس، سيفتح عما قريب في ميدان الكتابة. وهذه بوادره قد ظهرت في كتابات بعض طلبة العلم في بعض المنتديات العلمية المتخصصة. ولو أنني كتبت هذا المقال بلهجتي العامية التي نشأت عليها، فمن سيفهم عني ما أقوله، من أحبابي من أهل المشرق الإسلامي؟

فتخيل معي يا صاحبي ما سيؤول إليه أمرنا، إن لم نتدارك الأمر قريبا.

ونحن إذا استمررنا في هذه السبيل المظلمة، فسيأتي الزمان الذي يموت فيه الذوق العربي، وتستعجم التراكيب الفصيحة على الناس، ويفقد الطلبة - فضلا عمن دونهم - الملكة اللغوية، التي تربطهم بالقرآن والسنة، وتراث الأمة.

إني لأقرأ في بعض الأحيان قصة طريفة في بعض كتب الأدب القديم، فيشتد منها ضحكي. فأجرب أن أشارك فيها بعض إخواني، فإذا هو الوجوم والاستغراب، كأنني ألقيت عليهم مرثية أو خاطبتهم بموعظة!

ويحـدث لـي أن أقـرأ أيضـا تركيبا مزهـرا للجاحـظ، أو بيانا مشـرقا للتوحيـدي، أو لعبـة لفظية راقية للقاضـي الفاضل (هذا الـذي هدمنا أدبه بدعـوى الإفراط في الصنعـة اللفظية، ثم لـم نأت بمـا يعوضه. بل صرنا: لا لفظ ولا معنى!)، فأكاد أطير من مقعدي من شـدة الطرب، وأبحث - قريبا مني - عمن يشاركني سعادتي، من الطلبة الملتزمين بالشرع، والمنتسبين إلى طلـب العلـم، فألتاع من حر الغربـة؛ مع أنني في عرف أهـل العربية متطفل أعجمي، لكن كم من أعشى يكون غريبا في مملكة العميان!

إن الـذوق العربـي ينـدثـر.. وإن الملكـة اللغوية تنحسـر.. وإن حماة العاميـة تزحف.. فالحقوا هذه اللغة، بل الحقوا هذا الدين، فإنهما مرتبطان لا ينفكان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إصلاح اللسان

10 شوال 1433

الحمد لله وصلى الله وسلم على رسول الله، وعلى آله وصحبه.

أما بعد

فإن الله تعالى أنزل القرآن بلسان عربي مبين، على رسوله الأمين أفصح ناطق بالضاد، ﷺ. وأخذ عن هذا الرسول الكريم ثلة من الصحابة المبجلين، وهم أهل الفصاحة وأرباب البيان، فنقلوا أصول الوحي وفروعه لمن بعدهم، بلغة عربية سليمة منقحة. فكانت الشريعة المطهرة كلها مصهورة في بوتقة هذا اللسان العربي البليغ، وكان لذلك فهم الشريعة، والتعمق في مقاصدها الكلية، وأحكامها الجزئية، معتمدا على حسن التصرف في لسان العرب، وبلوغ أعلى المراتب في ذلك.

يقول الإمام الشاطبي رحمه الله: (.. الشريعة عربية، وإذا كانت عربية فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم، لأنهما سيان في النمط، ما عدا وجوه الإعجاز. فإذا فرضنا مبتدئا في فهم العربية فهو مبتدئ في فهم الشريعة، أو متوسطا فهو متوسط في فهم الشريعة، والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية، فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة، فكان فهمه فيها حجة كما كان فهم الصحابة وغيرهم من الفصحاء الذين

فهموا القرآن حجة. فمن لم يبلغ شأوهم فقد نقصه من فهم الشريعة بمقدار التقصير عنهم..)[1].

وفي عصرنا هذا، لا يتنازع اثنان من حملة الشريعة في هذا المعنى على سبيل الإجمال، وأما عند التفصيل والتنزيل فالأمر مختلف. ولذلك فلست أعرف متفقا عليه عند التنظير أشبه بمختلف فيه لدى التطبيق من أهمية علوم العربية في فهم النصوص، وتحصيل أداة الاستنباط!

إن من أعظم أولويات العمل الدعوي الذي يطمح إلى بعث الإسلام في القلوب غضا طريا، ويبحث عن تحكيم الشريعة في الأفراد والمجتمعات: إحياء الذوق العربي الفصيح عند طلبة العلم الشرعي، ومقاومة الضعف اللغوي الذي ينخر أذهان المتصدين للاجتهاد في فروع الشريعة وأصولها.

الضعف اللغوي: أسباب متشابكة:

يحق لنا أن نسأل بمرارة في اللسان وحرقة في القلب:

ما الذي أوصل الأمة إلى هذه المنزلة المتدنية، في تعاملها مع لغة كتابها، ولسان نبيها؟

ويأتي الجواب شاملا لأسباب كثيرة، اجتمعت فأنتجت هذه الظاهرة الخطيرة. فمن ذلك:

---

(1) الموافقات: (5/ 53)، وفي الاعتصام كلام طيب عن أثر الضعف اللغوي في أصول البدع (2/ 47). وينبغي التذكير بأن الإمام الشاطبي إلى جانب تبحره في أصول الشريعة، كان من أكابر اللغويين كما يشهد بذلك شرحه الفذ على ألفية ابن مالك: (المقاصد الشافية).

- الأثر البغيض للاستعمار[1] الأوروبي، الذي حرص أشد ما يكون الحرص على تدمير الثقافة العربية، والحضارة الإسلامية؛ وفي مقدمة ذلك سعيه لمحاربة اللغة العربية وإحلال اللغات الأجنبية موضعها. ولم يخرج المستعمر إلا بعد أن خلف وراءه قوما يتبعونه حذو القذة بالقذة، ويطبقون سياساته على أفضل ما يكون التطبيق!

- التشتت اللغوي القاتل في مناهج التعليم المدرسي، إذ يصل الأمر في بعض البلاد العربية إلى تعلم أربع لغات في سن الصبا[2]! وفي بلاد عربية أخرى يجبر الطالب على تعلم لغة أجنبية، تنافس العربية في ذهنه، بل تكون أحظى عنده في الغالب، لما تفتحه أمامه من آفاق دنيوية رحبة. وقد اشتهر قول الجاحظ: (واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها..)[3]. ويشتد الخطر حين يكون اختلاط الألسنة في ميعة الصبا.

- ضعف مناهج تدريس اللغة العربية في المدارس والجامعات، وتذبذبها بين المناهج التعليمية الحديثة، والأساليب التراثية. ونتيجة ذلك أن

---

(1) استعمالي لهذا اللفظ إنما هو لذيوعه وانتشاره، وإلا فمن الواضح جدا أنه بالتخريب والتدمير ألصق منه بالتعمير!

(2) هذا الحال في المغرب الأقصى. فإن الطفل يتعلم في المدرسة الابتدائية: العربيةَ والفرنسية معا، والأمازيغية في كثير من المدارس، وهي تجربة قابلة للتعميم. وتضاف الانجليزية في المدارس الخصوصية! هذا كله عدا العامية المغربية التي يتعلمها الطفل في البيت والشارع. فاعجب لهذا الخليط، وتدبر ما الذي يبقى من الذوق العربي بعد هذا؟!

(3) البيان والتبيين (1/ 293).

أكثـر المتخرجين من هذه المؤسسـات التعليميـة، لا يبقى في أذهانهم شـيء معتبر مـن علوم العربيـة التي تلقوهـا خلال سـنوات التحصيل الدراسي الطويلة[1].

- غلبة العامية في لغة التخاطب اليومي، وفي وسـائل الإعلام المسـموعة والمرئيـة، ثـم في الـدروس العلميـة والمواعـظ العامة، بـل في خطب الجمعـة أيضـا[2]! ولم يبق للعربية سـوى حيز ضيـق في مجال الكتابة خصوصا، مع عدم السلامة من التعبير الركيك، والتركيب العامي.

- التهـاون الشـديد من طلبـة العلم الشـرعي، بل من العلمـاء الكبار، في أمـر العربية: حثا علـى تعلمها، وبيانا لعظيم شـأنها، وإعطاء للقدوة في اسـتعمالها، وحذرا مما يصم وجهها المشـرق. وإذا تسـاهل هؤلاء في لغـة الضاد، مع علمهم بخطورة ذلك، وتحاكمهم فيه إلى نظر شـرعي قطعي؛ فمن ترى - بعدهم - يحمل مشعل إحياء هذه اللغة الكريمة؟

إذا علمت هذه الأسباب، فإن علاج المرض ينبغي أن يكون على صعيد

---

(1) رصـد الاختـلالات المنهجيـة في الجامعات العربية يحتاج إلى بسـط، لعله يكون في مقال خاص.

(2) للعلامـة الطناحـي رحمـه الله كلمة في نقد بعض خطبـاء الجمعة يقول فيها (مقالات الطناحي 1/ 157): (أما الآن فتكاد خطب الجمعة - ولا سيما على ألسنة الشبان المتحمسـين - تتحـول إلـى ثرثـرة وكلام عـام مبهـم عن ((مدرسـة محمـد صلى الله عليـه وسـلم))، و((الإسـلام في خطـر)) و((الإسـلام هـو الحـل)) وهـذا وهـذان ممـا يصرف عن الاستشـهاد بالقرآن والحديث وكلام العرب، وإذا أتاك شـيء من ذلك فهو يأتيك في معظمه ملحونا ومزالا عن جهته).

شامل، وبأساليب متكاملة. وهذا يقتضي اجتماع جهود أفراد ومؤسسات، مع إرادة سياسية حاسمة، وانخراط للمجتمع كله في عملية البناء.

وفي انتظار بزوغ فجر هذا العلاج الناجع، فإن على الأفراد - وأخص طلبة العلم الشرعي منهم - مسؤولية تأسيس عمل فردي، لإصلاح الألسنة، وتكوين الذوق العربي الفصيح.

وذلك ـ في نظري - ينبني على دعامتين، أولاهما مرتبطة بالتعليم والتأصيل، والثانية مستمدة من الممارسة والتطبيق.

التحصيل العلمي اللغوي:

إن علماء الأمة أفنوا أعمارهم منذ القديم، ليحولوا المادة اللغوية الموروثة إلى علوم مؤصلة، ويضعوا لها القواعد التي تضبطها، وتجمع شتاتها. ومن الجهل الشنيع أن يتنكب بعض المتسرعين هذا النهج اللاحب، وينسفوا هذا الجهد الباذخ، ويدعوا أنهم يودون المتح المباشر من ذاك المعين الأصلي، دون الاستفادة من هذه العلوم المنهجية.

لا بد إذن من أخذ قسط حسن من علوم العربية، يكون كالحد الأدنى الذي لا تحصل الثقة بلغة من لم يحصله.

وهذا الحد الأدنى ـ من خلال تجربتي - يشمل الآتي:

- أساسيات علمي النحو والصرف، وذلك يتحقق بحفظ المتون المشهورة وإتقان فهمها، والمثابرة على مذاكرتها. وأقصد بذلك متن الأجرومية، وألفية ابن مالك، ولامية الأفعال. ومن أراد الازدياد من

الخير، فأمامه كتب النحاة القدماء والمحدثين، كالمعين الثر الصافي، لا ينقطع عطاؤه.

- أصول علم البلاغة، بأقسامها الثلاثة، وأقل ذلك حفظ نظم الجوهر المكنون، وفهم معانيه. وينبغي الحذر من تشقيقات المتأخرين، وتفريعاتهم الكثيرة، فإنها عن فصاحة العرب الأقحاح بمعزل.

- علما العروض والقوافي، والحد الأدنى في ذلك أن يعرف الطالب البحور الشعرية، وما يلحقها من تغيير، ويتقن تقطيع الأبيات، وإلحاقها ببحورها، ويتمكن من قرض الشعر إن نازعته نفسه لذلك. ولا يلزم غيرَ المتخصص حفظ الاصطلاحات الكثيرة في هذين العلمين.

- قواعد الإملاء، ويكفي في ذلك كتيب صغير يشرع القواعد التي يقبح بالكاتب مخالفتها، مثل كتاب (قواعد الإملاء) لعبد السلام هارون.

- أما متن اللغة، فبحر لا ساحل له، ولا سبيل إلى الإحاطة به[1]، ولا يزال الطالب في ازدياد منه ما دام فيه عرق ينبض. وأقل مايطالع فيه: بعض المعاجم الصغيرة، كمختار الصحاح، والمصباح المنير، ثم القاموس وما شاكله. على أن اختيارات الأدباء أولى بالعناية من تجميع المعاجم، فاللفظة المشهورة التي يتداولها أهل الفصاحة خير من اللفظة المهجورة التي ينقلها أهل اللغة.

---

(1) قال الشافعي في الرسالة (1/ 42): (ولسان العرب أوسع الالسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي).

الممارسة اللغوية، واكتساب المهارات:

إن التحصيل النظري المجرد عن الممارسة التطبيقية، لا يثمر الفائدة المرجوة، ولا يخرّج متمكنين من آلة الخطاب، وأداة البيان، ولا قادرين على تملك ناصية فهم النصوص، واستخراج مكنوناتها.

وقد رأيت من طلبة العلم من يحفظ ألفية ابن مالك ويتقن فهمها، ثم هو يلحن في كلامه!

ورأيت من يحفظ عقود الجمان، ويستحضر اصطلاحات البلاغيين، ثم هو يأتي في كتابته بالركيك الممجوج!

ورأيت من يحفظ نظم الخزرجي، ويذاكر في ألفاظ العروضيين، ثم هو لا يقيم بيتا من الشعر!

فهذه العلوم لا بد منها ولكنها لا تكفي، إذ هي لا تنفع صاحبها إلا مع المران الشديد، والدربة الطويلة. ولذلك لم يكن علماؤنا يكتفون بعلوم العربية النظرية، بل كان لهم نصيب معتبر من الآداب، حفظا ومذاكرة وتأليفا، مما غاب عن كثير من طلبة العلم العصريين، بزعم التورع عما يشين في كتب الأدب تارة، وبالرغبة في حفظ الوقت تارة أخرى. ونتج من ذلك، جفاف في التعبير، وخشونة في الألفاظ، وركاكة في الأساليب.

ويشمل شق الممارسة محاور ثلاثة، هي: النطق والاستماع والكتابة. والقاعدة العامة التي ينبغي أن تنتظم هذه المحاور كلها، هي: (تجنبُ الترخص، والأخذُ بالعزائم). فلن يحصل الطالب بغيته من هذه اللغة الكريمة إلا بالصبر على لأواء الأساليب الراقية، والجلَد في انتقاء الألفاظ

الفخمـة العالية، والمثابرة على تحري الإعـراب في مواضعه. أما من أخلد إلى أرض الكلام العامي المبتذل، ولغة الإعلام السـمجة، وتسكين أواخر الكلم فرارا من نَصَب الإعراب، فلا تتوقع منه إشراقا في سماء الفصاحة، أو لمعانا بين نجوم البلاغة.

أمـا في مجال النطق، فعلـى الطالب أن يتحرى اسـتعمال الفصحى ما أمكنـه ذلك، فـإن العامية كالأَرَضَة، تنخـر الذائقة الفصيحـة، فلا تذر منها شيئا ذال بال. وينبغي كذلك الحذر من الرطانة بالأعجمية، إلا لمصلحة لا يختلف فيها؛ فإن هذه اللغات الأوروبية - كأهلها - تحب الهيمنة، وتعشق السـيطرة، فـلا يلبث المتسـاهل في هذا البـاب أن يجد لسـانه في منزلة بين المنزلتيـن، فليس بـ«معتـزل» درك الأعجميـة، ولا بـ«واصل» إلى معالي العربية.

وعلـى الطالـب أن يتمـرن علـى النطـق الجهـري بالـكلام الفصيح، وأقـل ذلك أن يحمل ديوانا من دواويـن الأدب القديم[1] فيقرأ فيه بصوت مسـموع، متحريا الإعراب والنطق السليم. وأعلاه أن يتدرب على ارتجال الخطب في موضعات مختلفة، بأفضل ما لديه من الألفاظ والتراكيب.

وأمـا في بـاب الاسـتماع، فعلـى الطالب أن يتخيـر لأذنه، كمـا يتخير الرائـد لقومه أطيـب المنازل، وكما ينتقي الراعـي لأنعامه أفضل المناجع؛ فإن السـمع جماع لكل ما يمر عليه، ثم هو يرسـله إلى الذهن، خيرا كان أو

(1) من الكتب المقترحة: جمهرة خطب العرب، ونهج البلاغة، وكتب الجاحظ والتوحيدي، وكامل المبرد وأمالي القالي، وما لا يحصى كثرة من المصنفات الأدبية الجامعة.

شرا. فمن اعتاد استماع الكلم الفصيح، صار لعقله مناعة ضد التافه من القول؛ ومن اعتاد الاستماع لكل كلام دون تمحيص، أوشك أن يستوي عنده العالي والنازل، ويختلط في لسانه الحابل بالنابل!

وقد أدركت من أهل العلم من يكره إصاخة سمعه لبعض الدعاة الجدد الذين يخلطون دقَل اللفظ ببرنيّه، ويمزجون در الكلام ببعره؛ صونا لسمعه، وحفظا لأذنه من غارات القول المرذول.

وأما أخيرا في ميدان الكتابة، فليكن للطالب ورد يومي - قل أو كثر - من رصف الألفاظ، وتوليد المعاني، متحريا في ذلك النسج على منوال أكابر الأدباء، وجهابذة البيان الناصع، والتعبير المشرق. ولا يزال الطالب يحاكي هؤلاء في أساليبهم، ويتنقل بين روضات تعابيرهم، حتى يشيد لنفسه أسلوبا فصيحا، يتخذه مطية للتعبير عن مكنون أفكاره.

إن مما يبني مهارة الكتابة: التفكر الطويل في العبارة، وتنقيحها المرة بعد الأخرى، قبل الانتقال عنها إلى ما يليها. أما إلقاء الكلام كما يتفق لأول وهلة، دون تدبر ولا مراجعة، فإنه يعوّد القلم على استمراء السهولة، ويؤول به إلى الابتذال والركاكة.

اللهم قيض للعربية من يقوم بشأنها أفضل قيام، ويعيد لها مجدها الداثر.

الأزمة اللغوية في التعليم المغربي

جمادى الثانية 1434

كنت في مذاكرة مع بعض الأصحاب حول قضايا القراءة، وسبب ضعف الاهتمام بها لدى المغاربة، إذا ما قورنوا بالغربيين، بل حتى ببعض الدول العربية الشرقية. وطُرحت خلال المذاكرة أسباب كثيرة، ولكن كان من رأيي أن المشكلة اللغوية هي السبب الرئيسي.

وذلك أن كل الأسباب الأخرى - مثل ضعف التعليم، والانشغال بالمشاكل الحياتية المادية، وغلاء الكتب وغير ذلك - قد تفسر التفاوت الحاصل بيننا وبين الغرب، ولكنها قاصرة جدا عن تفسير الفرق الهائل بين المغاربة وبعض المشارقة في هذا المجال، مع بعض التشابه بين دول المغرب الكبير في قضايا المطالعة.

ولا شك أن قواعد المنهج العلمي تقتضي أن ينظر في القاسم المشترك بين دول المغرب في هذا الباب، وليس ذلك سوى التشابه اللغوي الراجع إلى التاريخ المشترك.

كما أن تجربتي في مجال الدعوة إلى إحياء ثقافة القراءة، على صعيد الفرد والمجتمع، علمتني أن كثيرا من الناس في بلدنا يعزفون عن القراءة، لأن لديهم ضعفا لغويا خانقا، يمنعهم من إيجاد المتعة في ثنايا الكتب.

وليس موضوعنا الآن: هموم القراءة - وقد يكون لذلك مجال أوسع

أذكرها فيه، وأبين بعض مقترحات الحلول - ولكن هذه الهموم تجر إلى البحث في الأزمة اللغوية، من حيث إن الأولى من نتائج الثانية.

التشتت اللغوي

لا أعرف للتشتت اللغوي في المدرسة المغربية نظيرا في دول العالم!

فالطفل عندنا قبل دخول المدرسة، يتعلم في أسرته الصغيرة اللهجة المغربية الدارجة (ومعها الأمازيغية في كثير من المناطق).

وفي المدرسة ـ ومنذ السنوات الأولى - يتعلم العربية والفرنسية، جنبا لجنب، كأن كليهما لغته الأم!

وفي بعض المناطق تضاف الأمازيغية، وستعمم على المدارس جميعها - فيما نسمع.

ثم يضاف لهذا كله - في كثير من المدارس وأخص بالذكر منها المدارس الخصوصية - اللغة الانجليزية، التي صارت تدرس في المراحل الابتدائية!

ونتيجة هذا كله، أن كثيرا من أطفالنا قبل سن العاشرة، يرطنون بأربع لغات على الأقل: العربية والفرنسية والانجليزية والعامية المغربية (وهي لهجة منفكة في أكثرها عن قواعد الفصحى، لذلك أدخلتها ضمن اللغات). وتزاد الأمازيغية في مناطق كثيرة.

فهل يعرف لهذا الخلط العجيب مسوغ، غير الحسابات السياسية، وتراكم الأخطاء التاريخية؟!

وهل يعلم لهذه الوصفة النادرة في باب التشظي الذهني، مثيل في بلاد العالم المتحضر، بل وفي غير المتحضر أيضا؟!

إنني أتفهم تدريس العربية التي هي لغة القرآن والحديث، ووعاء الحضارة الإسلامية الخالدة التي ينتشرف المغاربة بالانتماء إليها.

وأتقبل تدريس الأمازيغية من حيث هي اللغة الأم لقطاع عريض من الشعب المغربي ـ أفتخر أن أكون منهم - وإن كان لي في مناهج تدريسها رأي خاص.

ولكنني لا أفهم تدريس الفرنسية والانجليزية في المراحل العمرية الأولى، فإنهما لغتان وافدتان، ينبغي أن يأتي تدريسهما بعد اللغة الأم، كما هي القاعدة المطردة في كل بلاد المعمورة. ولا معنى لتدريس لغة البلد في الوقت ذاته الذي تدرس فيه لغة المستعمر الغالب!

وإن لم يكن هذا برهانا واضحا على استمرار التبعية الثقافية والحضارية خلال المرحلة التاريخية الموسومة بـ(الاستقلال)، فلا يصح في الأذهان شيء أبدا.

على أنه لو كان لي الخيار بين هاتين اللغتين الوافدتين، لاخترت الانجليزية دون تردد، فإنها لغة التقنيات الحديثة، والعلوم العصرية ـ حتى الإنسانية منها.

أما الفرنسية، فلغة تراوح مكانها منذ عقود طويلة، وتقاوم - بأساليب السياسة في الغالب الأعم - أعراض الشيخوخة اللغوية، في ظل الضربات القاتلة من الطوفان الانجليزي الغامر.

وما أتعس المغربي المعتد بثقافته الفرنسية حين ينتقل إلى كثير من بلاد العالم، فلا يجد لفرنسيته أثرا على أرض الواقع، ويندم كثيرا على الأوقات التي صرفها في هذه اللغة المحتضِرة، كان الأولى أن يصرفها في لغة العصر: الانجليزية!

التردد اللغوي:

وإلى جانب ما ذكر، فإن القرار السياسي المضطرب في الحقل التعليمي، قد أنتج حالة عجيبة، يتأرجح فيها التعليم بين التعريب وعدم التعريب. والضحية في هذا: التلميذ والطالب، الذي يتخرج غير قادر على التعبير عن أفكاره بوضوح وطلاقة، ويحتاج إلى الكثير من الجهد الشخصي لترميم ما أفسدته المدرسة في كيانه اللغوي.

فالتلميذ يدرس العلوم "الدقيقة" من رياضيات وفيزياء ونحوها، بالعربية - مع ترجمة المصطلحات بالفرنسية - ويستمر على ذلك إلى أن ينال شهادة البكالوريا، فيكتشف أنه سيدرس هذه العلوم بالفرنسية وحدها، وأن كل الاصطلاحات العربية التي أفنى سنوات دراسته الأولى في حفظها، لم يعد لها أدنى نفع في الجامعة.

والأدهى من هذا كله، أنه إذا قدر له الاستمرار في تعليمه الجامعي إلى مراحل متقدمة، فإنه يكتشف أن اللغة المعتبرة في المحافل والمنتديات العلمية ومراكز البحوث والمجلات المتخصصة، إنما هي: الانجليزية!!

ولذلك تجد الطلبة المتخرجين حديثا يحتاجون إلى دروس تقوية في هذه اللغة، لمسايرة الواقع العلمي المتجدد.

ومن النماذج المعبرة عن هذا التردد اللغوي الفاضح، أن الأقسام التحضيرية للمدارس العليا للمهندسين تعقد حصصا خاصة بالترجمة بين هذه اللغات الثلاثة، ليستطيع الطالب الذي يطمح للعمل في مجال الهندسة، إلى تكييف مخزونه المدرسي مع الواقع العلمي في العالم المتقدم!

إنه من المقرر عند أهل الاختصاص أنه لا يكون الجمع بين لغتين أو أكثر في لسان واحد، بمقادير متساوية من التعليم، إلا أثر بعضها في درجة التمكن من بعضها الآخر.

وهذا شيء ذكره الجاحظ قديما حين قال في كتابه الفذ (البيان والتبيين):

(واللغتان اذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها).

ولذلك فإن الطلبة المتخرجين من مدارسنا اليوم، لا يستطيعون - إلا في حالات الندرة عند بعض الأفذاذ - ادعاء التمكن من العربية ولا الفرنسية ولا الانجليزية، وإنما هي نتف من هنا، وشذرات من هناك.

ويظهر العوار الشديد - مثلا - عند الحديث في المحافل العالمية الكبرى، بإحدى هذه اللغات..

فحدث حينئذ عن التخليط ولا حرج!

الارتجال البيداغوجي:

ثم إن هنا مشكلة أخرى متجذرة، لا تقل في خطورتها عن المشكلتين

السابقتين، وهي مرتبطة بما في نظامنا التعليمي من الارتجال في التخطيط، والعشوائية في اتخاذ القرارات التربوية.

وما حديث (وضعيات الإدماج) منا ببعيد!!

وقبلها وبعدها قرارات كثيرة، تجعل التلميذ والطالب متأرجحا بين المناهج التربوية المختلفة، بل المتضاربة في أحيان كثيرة.

ونتيجة ذلك أن التلميذ يلتجئ إلى ساعات الدعم الإضافية، خارج المدرسة التي لا يجد فيها ما يشبع نهمته، خاصة في مادتي الفرنسية والانجليزية؛ حتى إن الناظر لجحافل المنتظمين في هذه الساعات الإضافية، ليتساءل: ما الذي قدمته المدرسة المغربية لهؤلاء، منذ التحاقهم بها؟ وما الفائدة من تدريس الانجليزية - مثلا - في المراحل الابتدائية، إذا كان الطالب سيحتاج عند بلوغه المرحلة الثانوية إلى دعم إضافي؟ (وقارن هذا بالأجيال السابقة التي كانت لا تبدأ دراسة الانجليزية إلا في المرحلة الثانوية، ومع ذلك فقد يقال إن النتيجة كانت أفضل، أو مساوية على الأقل).

وتتعمق الأزمة حين يصبح هؤلاء المتخرجون من هذا النظام الفاسد: مدرّسين بدورهم! فتكتمل بذلك الحلقة الهدامة، التي لا يمكن كسرها إلا بجرأة كبيرة، وتضحيات جسيمة، قد تتحملها بعض الأجيال، لمصلحة التوطئة للأجيال القادمة.

إن الجرأة مطلوبة في هذا المجال، على الرغم من الإشكالات السياسية والاقتصادية الكثيرة التي تعوق مسيرة الإصلاح.

ولكـن يهـوّن الأمر قليـلا، أن هـذا الإصلاح متعلـق بمسـتقبل البلد برمتـه، وأن تراكـم التهاون في حل هذه الأزمة، والجبـن في اتخاذ القرارات الملائمة، سـيجعل تعليمنا مسـتمرا في دوامة الانحطاط، مـع ما يعنيه ذلك من تفاقم المشكلات الأخرى المرتبطة بهذا القطاع الحيوي.

ألم يئن الأوان بعد لتحريك هذا المسـتنقع الراكد، باختيارات جريئة، وقرارات عملية؟

تنشئة الأطفال على حب العربية

المحرم 1435

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

فإن كثيرا من أهل زماننا يشتكون اليوم من غلبة العجمة على ألسنتهم، وقلة تذوقهم للكلام العربي الفصيح؛ مما يجعلون يقفون عاجزين أمام نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وكتب التراث العربي العلمي والأدبي، لا يقدرون على فهمها، أو استخراج كنوزها.

وهم يعزون ذلك لكونهم لم يتلقوا تربية لغوية صحيحة في صغرهم، وأن العامية واللغات الأجنبية أخذت من أوقات تعلمهم أكثر مما أخذت الفصحى.

وهذا صحيح إلى حد بعيد. لكنني أرى أن الركب لم يفتهم بعد، بل لا يمكنه أن يفوت ذا همة عالية. وأرى أنه يمكنهم استدراك النقص في أي وقت، ببذل شيء من الجهد، مع التخطيط المحكم، والعزيمة الراسخة؛ وقد بينتُ طرفا من هذا في مقالي السابق الذي بعنوان "والعلم في الكبر.. أيضا".

نعم.. من الجميل أن يقر الإنسان بغلطه، ومن الجيد أن يعرف أسباب وقوعه فيه.. ولكن من العجيب حقا أن يرى أقرب الناس إليه يعيدون نفس الأخطاء، فلا يأخذ بأيديهم إلى جادة الصواب!

ولذلك لا ينقضي عجبي من هؤلاء الذين يشتكون من الضعف اللغوي، ويعرفون أن سبب ذلك التربية التي أنشئوا عليها، ثم هم يعيدون تكرار التربية نفسها، بالأخطاء ذاتها، مع فلذات أكبادهم!!

ولا شك أن تربية الأولاد أمانة ثقيلة، ومسؤولية عظيمة!

وقد قال الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾.

ولذلك فمن مسؤولية الوالدين أن يحميا طفلهما من كل شر، وأن يحملاه على كل خير، في حدود المستطاع.

وأي شر هو أعظم من أن ينشأ الطفل منبتّ الصلة بلغته، منقطع الربط بثقافته، عاجزا العجزَ كله عن التعامل مع اللسان العربي الذي هو وعاء هذه الشريعة المطهرة؟

وأي خير هو أجلّ من أن يتذوق الطفل لذائذ العربية منذ نعومة أظافره؛ ويسبح في ملكوت الفصحى يجيل طرْفه في محاسنها، ويمتع مقلته بمرأى عجائبها، ويعتام من عبير زهَرها، وينتقي من أطايب ثمرها؟

وإذا علم هذا - وهو إن شاء الله معلوم - فإنني أرشدك في كلمات معدودات إلى أمور يسيرة، تحرص على تطبيقها مع أولادك، تجعلهم - بإذن الله تعالى - من المحبين للغة القرآن، المتذوقين للطائفها وفرائدها، وتجنبهم الوقوع في حمأة الانبهار الفكري والاستعباد الثقافي، اللذَين ينبعان من التبعية اللغوية لأمم الغرب. والتبعية اللغويةُ أولى دركات التبعية الثقافية والحضارية - كما هو معلوم.

الأمر الأول:

أظهر لأولادك أنك تحب العربية الفصحى، بل تعشقها كما يعشق الخليل محبوبته؛ وأنك تعظم علومها، وتحلها من العلوم الأخرى في واسطة العقد، لتكون لهم في ذلك، قدوة صالحة، وإسوة حسنة. فإن تأثير القدوة يفعل في النفوس من التأثير ما لا تفعله النصائح والتوجيهات.

فإن أعوزك الحب الصادق في شغاف قلبك - لضَرَّةٍ مُفسدة قد استولت على عرش فؤادك فما تركت للعربية موضعا تكون فيه - فأظهر على لسانك ومحياك وجوارحك خلاف ما تبطن.. ولعله أن يكون "نفاقا" مغفورا، لعظيم المصلحة المرجوة منه.

الأمر الثاني:

اربط اللغة العربية في نصائحك وتوجيهاتك بالإسلام، وأفهمهم عند أدنى مناسبة أن العربية يجري عليها ما يجري على دين الله من الأحكام، ليتجذر في أذهانهم أنها لغة القرآن الكريم، وأنها لسان الحبيب محمد ﷺ، وأنها لغة الصحابة الأماثل رضوان الله عليهم.

فليست العربية كغيرها من اللغات، ولا يمكن مقارنتها بسائر الألسن، فإنها اللغة التي اختارها الله ﷻ لكتابه العزيز. وكفى بذلك شرفا وفخرا!

الأمر الثالث:

عاتب أولادك على اللحن، ولو كان يسيرا لا يؤبه له، في عصر الركاكة والعيّ الذي نحن فيه.

وتقويم لحن الأطفال جادة مطروقة، وسبيل لاحب، عليه سار المربون والمؤدبون منذ قرون مديدة، وأثمر ذلك أقواما يأنفون من اللحن كما يأنف الواحد من الناس من أثر الجدري في الوجه؛ ويسترون اللحنة الواحدة كما يجتهد الواحد منا في ستر سوأته؛ ويرون إعراب الكلام منقبة، واللحن فيه مسبة!

وقد كان الشيخ الوالد يمارس معنا ـ ونحن أطفال - دور الرقيب اللغوي، الذي لا يمر عليه لحن دون تعقيب أو تقويم. حتى إنني - إلى الآن ـ لأتحفظ إن تكلمت بالفصحى أمامه، مخافة الوقوع في بعض اللحن[1].

الأمر الرابع:

قد يجري على لسان بعض أولادك استهزاءٌ بالنحو أو استهانة بالصرف أو تهكم بقواعد غيرهما من علوم العربية، أو بأئمة هذه العلوم القدامى والمحدثين.

فإن وقع ذلك أمامك، فلا تجارهم فيه، بل نبههم بلطف وحكمة على أن هذه العلوم خادمة للقرآن والسنة، ولا يستقيم فهم الوحيين دون معرفتها. واسرد لهم قصة تشييد هذا البنيان الشاهق منذ لبناته الأولى إلى أن اكتمل صرحا سامقا، وأخبرهم بالجهود الجبارة التي بذلها علماء الأمة عبر قرون كثيرة، لتأسيس هذه العلوم، وتنميتها وحفظها. فكيف يليق أن تجعل عرضة لألسنة العابثين المستهزئين؟

---

(1) ثم توفي - رحمه الله وجزاه عنا خير الجزاء - في شهر ذي القعدة من عام 1439.

وإن أنسَ فلست أنسى - ما حييت - يوم قال أحدهم أمام الشيخ الوالد بنبرة ضاحكة، وقد سمع شيئا من تقريراته النحوية:

- «سيبويه هذا قد مات، ومضى علمه.. ».

فصاح به الوالد ﷺ بلهجة المحتدّ المغضَب:

- «بل هذه اللغة العربية يا هذا، لا سيبويه.. وهذه العربية لا قيام لها دون هذه القواعد التي قعدها هؤلاء.. ».

فانظر إلى أثر ذلك عليّ وأنا صبي، حتى ما نسيت الموقف بعد سنوات عديدة!

الأمر الخامس:

اعرض على أولادك بين الفينة والأخرى جملة صغيرة (آية قرآنية أو جزءا من آية، أو حديثا نبويا، أو بيتا شعريا، أو مثلا مشهورا، أو غير ذلك من فصيح الكلام) واطلب منهم إعرابها. وليكن ذلك ذريعة لمراجعة بعض قواعد النحو والصرف.

وأكثر القواعد رسوخا في الأذهان، ما اقترن بالتمرين والتدريب، وصاحب التطبيق العملي.

وأنا أفعل هذا مع أولادي، المرة بعد المرة، وأرجو لهم به نفعا وفائدة.

الأمر السادس:

إن لم تستطع أن تكلم أولادك بالفصحى على كل حال، فلا أقل من أن

تجنبهم اللهجة العامية في أكثر الأوقات، خاصة في الأشـياء المتكررة، التي ترسخ في الأذهان، وتبقى على الألسنة، كالأناشيد والأمثال.

وإن من رأيي أن مما يقتل الذوق العربي هذه الأناشيد العامية الموجهة للأطفال. فلا تستهن بأثرها عليهم، واحرص على تحفيظهم شعرا فصيحا راقيا، مع مراعاة يسر الألفاظ وسمو المعاني. وفي أشعار العرب القديمة من ذلك الكثير الطيب.

واحرص أيضا على أن تلقنهم بعض أمثال العرب المشهورة، بدلا من الأمثـال العامية أو الأجنبية. وإنك واجد في (مجمـع الأمثال) للميداني، ما يروي غلتك، ويحقق مرادك.

الأمر السابع:

مـا الذي يمنعك من قراءة قصص عربيـة تراثية على أطفالك الصغار، بدلا من هذه القصص المحدثة الركيكة في المبنى والمعنى؟

ومن المرشـح في هـذا الباب: قصـص الأنبياء (بالفصحـى مع ربطها بآيـات القرآن)، وسـيرة الحبيب ﷺ، وسـير الصحابـة والتابعين، والأئمة المجتهدين. ثم بعض القصص المنتقاة من كتب الأدب.

ألهمني الله وإياك حب لغة القرآن، وتربية الناشـئة على حبها، والتفاني في خدمتها.

والحمد لله رب العالمين.

استعمال العامية في الدعوة إلى الله

جمادى الثانية 1436

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

بدأت مناهج الدعوة إلى العامية وإحلالها محل الفصحى منذ أكثر من قرن، وتولّى كبرها المستشرقون وأذنابهم، ثم انتشرت في الأمة انتشارا ذريعا. (يراجع كتاب: "تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر" للدكتورة نفوسة زكريا سعيد).

وقد وقف في وجه هذه الدعوة أناس كثيرون، التقوا على بغضها وإن اختلفت دوافعهم، بين قومي وإسلامي ومحب للفصحى وباحث لغوي يعرف ضعف العامية وعجزها عن القيام بأعباء العصر اللغوية.

ولكن، لا ريب أن أول من اهتم بالدفاع عن العربية هم أهل الدين، الذي يعرفون مكانتها من الإسلام، والارتباط الوثيق بين إتقانها وفهم نصوص الوحيين وكتب التراث الشرعي، ويعرفون ابتناء علوم الشريعة كلها على هذه اللغة الشريفة.

ولذلك فقضية الدفاع عن العربية في مواجهة العامية قضية دينية إسلامية. والدعوة إلى العربية تعلما وتعليما وكتابة وخطابة، جزء أصيل من الدعوة إلى الدين عموما.

وكما لا يمكنني اليوم أن أدرّس الفيزياء دون رياضيات ـ لأنها أداته

التي لا يفهم إلا بها - فلا يمكنني أن أدعو إلى الدين إلا بالعربية ومع العربية، لأنها أداة فهمه.

ومن ثم كان الدعاة والعلماء أصحاب مسؤولية عظيمة في هذا المجال. فإذا قصّروا وتساهلوا، فمن الذي يحمل الأمانة من بعدهم؟

تاريخ مؤلم:

وقد بدأت الدعوة إلى العامية قديما بمحاربة الفصحى في مجال الخطاب، فبدأت المسرحيات بالعامية المصرية مثلا بعد أن كانت حكرا على الفصحى! ثم انتشرت في مجال "الفن" انتشارا بالغا.

ثم انتقلت إلى مجال الكتابة فظهرت الصحافة المكتوبة بالعامية، والأدب العامي - على استحياء ثم بقوة - إلى أن وصل الأمر إلى الصحافة الالكترونية ومواقع التواصل الاجتماعي.

ونحن نحمد الله أن أسلافنا من علماء وأدباء في القرون الزاهرة، لم ينبطحوا أمام طغيان العامية - وقد كانت موجودة في عصورهم خلافا لما قد يظن -، ولم يفتحوا أبواب الأدب والكتابة العلمية أمامها. ولو أنهم فعلوا، لما وجدنا اليوم بين أيدينا هذا التراث العظيم النابع من القرآن والسنة، والخادم لهما!

العامية أم العاميات:

إن تشجيع العامية - ولو بنية حسنة - يدفع الأمة إلى مزيد من التشتت والضياع. فالعامية الوحيدة المفهومة عند كافة البلاد العربية هي المصرية. وما سوى ذلك، لا يفهم إلا في دائرة ضيقة جدا.

ولذلـك حين يتكلـم (أو يكتب) الداعيـة المغربي أو الشـنقيطي مثلا بلهجتـه المحلية، فإنه يفقد كل أمل في التواصل مع "جمهوره" المشـرقي، ويحكم على دعوته بالمحلية والانحصار في حدود الدولة القومية الحديثة، بل في ما هو أقل من ذلك، بسبب تعدد اللهجات داخل القطر الواحد.

فيا فرحةَ الحاقدين على الإسلام وأهله، بانشغال كل ساكني بلد بما في بلدهم، عن هموم الأمة المشتركة!

وقـد يقـول قائل: إن هـذه الفصحـى كانـت في زمن سـابق لهجة من لهجـات الجزيرة العربية المتباينة. فما الـذي يمنع اليوم من اعتماد كل ذي لهجة لهجتَه، كما فعل العرب قديما؟!

والجواب: إن هذه اللغة العربية الفصحى هي لغة القرآن!

ولا تهمنا في شـيء تلـك الاختلافات التي كانت موجـودة قبل مجيء الإسـلام بين لغات العـرب فإن الصالـح منها أُدخـل في الفصحى، ووحّد القرآنُ اللغة العربية.

وحِرصُنا على العربية اليوم إنما هو لكونها لغة القرآن والسنة، لا لشيء آخر.

الفهمَ.. الفهمَ:

مـا أجَلتُ طرفي اليـوم في ضلالات النـاس، وكثرة اختلافهم، وشـدة انحرافهم عن الطريق القويم؛ إلا تيقنت أن مشكلتنا اليوم مشكلة فهم!

والذي لا يعرف اللغة، ولا يمارسـها، ولا يسمعها، ولا يقرأ بها، كيف نطالبه بفهم ما تحمله تراكيبها من المعاني - دقيقة كانت أو ميسورة؟!

كيف نطالب الناس بتدبر القرآن، وفهم مراد الله، والتأثر بزواجره ومواعظه؛ وأذواقُهم اللغوية منحطة بكثرة ما يسمعون من الكلام العامي المبتذل؟ (كثير من المتأثرين اليوم بالقرآن يتأثرون بأصوات القارئين أكثر من تأثرهم بمعاني الكلام المقروء!).

كيف نحصّن الناس من دعاة الضلالة الذي يخرجون كل يوم بفهم مبتدع جديد، لآية قرآنية أو حديث نبوي؛ وهم لا يميزون بين فهم وآخر، وتستوي عندهم لجهلهم بالعربية جميع الاستنباطات؟!

إن العامية تقتل الذوق العربي السليم. وتفعل فيه ما لا تفعله اللغات الأجنبية. لأنها عربية محرّفة، وليست لغة مستقلة في تراكيبها وأساليبها، فتأثيرها أخطر.

وضياع الذوق العربي، نتيجته المحتومة: سوءُ الفهم!

مهمة العالم والداعية:

مسؤولية العلماء والدعاة إلى الله رفعُ العامة إلى مدارج الخير ومراقي العلم، لا أن ينزلوا هم إلى دركات الجهل ومخالفة الشرع.

وتقريب العلم إلى العامة لا يكون بالتنازل عن شيء من الخير الذي ينبغي أن يرتقي العامة إلى تحصيله.

يقول الطناحي رحمه الله (مجموع مقالاته 157-156/ 1):

(.. كنت تجد - في الزمان القريب - من أوساط الناس وعوامهم من يأنس للكلام الفصيح ويرتاح له، ويحفظ منه الشيء بعد الشيء، وذلك

من خلال ما يسمعونه من خطيب الجمعة، العالم المتمكن، من نصوص القرآن العزيز والحديث الشريف، والأدعية المأثورة. أما الآن فتكاد خطب الجمعة - ولا سيما على ألسنة الشبان المتحمسين - تتحول إلى ثرثرة وكلام عام مبهم عن "مدرسة محمد ﷺ" و"الإسلام في خطر" و"الإسلام هو الحل" وهذا وهذان مما يصرف عن الاستشهاد بالقرآن والحديث وكلام العرب، وإذا أتاك شيء من ذلك فهو يأتيك في معظمه ملحونا ومزالا عن جهته (..)

وليتنا نعود إلى خطبة الجمعة المكتوبة على الورق الأصفر، (..) فمن خلال هذه الخطب المكتوبة حفظنا كثيرا من النصوص، وضبطنا كثيرا من أبنية الأسماء والأفعال).

وكلامه حق رحمه الله.

وما فائدة أن يكثر أتباعنا والمستمعون لنا، إذا فقدنا روح دعوتنا وساهمنا في الانحطاط العلمي والفكري الذي تعيشه مجتمعاتنا؟

فقد أدركتُ من العامة المتقدمين في السن، من كان أميا لم يدخل مدرسة قط، ولكنه لكثرة مخالطته طلبة العلم، وكثرة سماعه كلام العلماء، يستحضر كثيرا من النصوص، ويُحسن فهمها.

ولو أن العلماء خاطبوه بالعامية التي لا يعرف غيرها، لما حصّل هذا الخير قط.

والمقصود، أن الواجب على العلماء رفع تحدي تغيير الانحراف، لا التغيُّر لموافقة الانحراف.

انتشار المناهج التخريبية لاستعمالها العامية:

وهذه شبهة مشهورة. يقول القائل في شرحها:

إن أعداء الدين يستطيعون نشر أباطيلهم لأنهم يعرفون استعمال الأساليب المحببة للعامة، بما في ذلك اعتمادهم العامية في الخطاب.

والحق أن هذا جزء صغير من الصورة الكلية.

فهؤلاء المضلّون يبثون ضلالهم لأنهم يخاطبون الشهوات، ويدغدغون الأهواء..

وينشرون باطلهم لأنهم يسيطرون على وسائل الإعلام، ويتحكمون في التعليم..

ويصلون إلى أعماق المجتمعات لأنهم يملكون - في الغالب - السلطة السياسية، أو - على الأقل - يحسنون مداراتها..

والعالم أو الداعية لا يملك من هذا كله شيئا..

فتعصيب الجناية بأسلوب خطابه وحدَه، ظلمٌ وتطفيف في الميزان..

ولست أنكر حتمية التجديد في الأساليب الدعوية، والإبداع في الوسائل التواصلية - ما لم يخالف ذلك شريعة ثابتة - ولكن ذلك لا يقتضي التعبير بالعامية. بل في أساليب اللسان العربي الفصيح مراتب متفاوتة، بين علمي ووعظي وفكري، وسهل سلس كانسياب الماء في الغدران الرقراقة، وصعب خشن كتقطيع جلاميد الصخر، وفصيح عصيّ على غير الجهابذة، وفصيح متداول لا يجهله أحد.

وخطيب الجمعة أو الداعية الذي لا يحرك الناس، عنده خلل في المضمون أو الأسلوب أو فيهما معا، لا في لغة التعبير.

هل العامية تساعد على الانتشار الجماهيري؟

جوابي: إنها تحقق الانتشار من جهة والانحسار من جهة أخرى!

وبيان ذلك: أن الداعية إذا تكلم بالعامية - مع مضمون جيد - فإنه يحقق الشهرة داخل قطره في صفوف من لا يعرف الفصحى أو لا يحبها.

ولكنه يحكم على دعوته بالموت، خارج حدود بلده، وفي صفوف من يكره العامية من المثقفين والمتعلمين.

ولا يستثنى من هذه الموازنة إلا أصحاب العامية المصرية، لأنها تفهم بسهولة خارج مصر، لأسباب ذاتية وموضوعية لا أطيل ببيانها.

ونحن الآن في عصر التواصل الخارق، الذي يلغي الحدود الجغرافية، ويقرّب المسافات البعيدة. فكيف نطالب الدعاة بالتقوقع في بلدانهم على لهجاتهم المحلية؟

ولننظر في دعوى كون العامية سبيلا للاشتهار والانتشار بين الناس. أهي صحيحة فعلا؟

إذا أخذنا عدد المتابعين على تويتر مقياسا للشهرة، ففي طليعة الدعاة يأتي محمد العريفي وسلمان العودة وعائض القرني ونبيل العوضي. وهؤلاء كلهم يحاضرون بالفصحى، إلا ما يكون من نتف يسيرة بالعامية لا تضر!

وهذا الشيخ عبد الحميد كشك ﵀ أشهر واعظ وداعية في العصر

الحديث، كان أغلب كلامه بالفصحى، وأدركتُ خلقا من العوام يسمعون كلامه ويفهمون مقاله!

فلا أرى القضية إلا مبالغة لا تصح!

وحين ظهر الدعاة الجدد، قيل لنا إن اللحية الكثة واللباس التقليدي يصرفان المدعوين عن الاستماع، وعلى الداعية أن يحلق لحيته أو يخففها، ويلبس اللباس الإفرنجي ليكون مقبولا عند الناس.

وبقطع النظر عن الحكم الشرعي، فإنه ما مضت إلا سنوات قليلة، حتى رأينا على الشاشة علماء ودعاة بلحى كثيفة تكاد تملأ الصدر، ولهم من القبول عند الناس في مشارق الأرض ومغاربها ما لا يحلم به هؤلاء الدعاة الجدد!

التنازلات سيل منحدر لا يحبسه شيء!

إن التنازل عن بعض الحق لملاءَمة أهواء بعض الناس، لا بد أن يفضي إلى تنازلات أخرى تتلوه، وتكثر حتى تؤدي إلى الانحراف التدريجي، مع ضياع الغايات الكبرى التي يجب السعي إليها.

اليوم: نقبل بالكتابة والخطابة بالعامية ليفهم عوام الناس أمور الدين.

وغدا: سيأتي قوم يقولون: "إن أولادنا لا يفهمون الفصحى التي يجدون في المدارس، فلندرّسهم العامية بدلا من الفصحى".

وقد قيل هذا فعلا، فما الفرق المؤثر بين المقامين؟

اليوم يقول القائل: "سنستعمل العامية في دعوة العامة فقط، دون غيرهم".

وغدا: ستصبح العامية لغة الدعوة مطلقا، حتى مع المثقفين، بل لغة تدريس العلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه، وكذا الفكر والفلسفة وغيرهما.

وقد كان هذا فعلا، حتى رأيت من يدرّس علم النحو بالعامية!

وأخيرا..

إن السياسيين والمفكرين والعلماء في الغرب ـ وهم أكثر الناس تأثيرا في القرارات المجتمعية العامة ـ يتكلمون بلغة مقبولة أكاديميا، ولا يرضون باللحن في كلامهم، ويعدّ ذلك ـ إن وقع منهم ـ سبة في حقهم.

وسبيل الوصول إلى ذلك: نشر التعليم النافع، وإصلاح ما فيه من الخلل، ومحاربة الأمية الحقيقية والمقنّعة داخل المجتمع.

أما النزول بالدعوة إلى حيث ينزل المستوى اللغوي العام، فانحطاط لا يمكن إلا أن يزيد فصول المأساة التي نتخبط فيها.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

عن "البغرير"، وما يثير ..

المحرم 1440

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

تمهيد لغوي:

تعريب الكلمات الأعجمية يكون من طريقين:

أولهما: إبدال الحروف الأعجمية بما يقاربها من حروف العربية، كقلب الكاف الأعجمية كافا عربية أو قافا أو جيما أو غينا. وكل ذلك سائغ لا إشكال فيه.

والثاني: تحويل الكلمات الأعجمية من أبنيتها إلى الأبنية المعروفة عند العرب. فإن للعجم في كلامهم أبنية وأوزانا، كما أن للعرب أبنية وأوزانا، هي قوام الألفاظ العربية.

يقول سيبويه: (كل ما أرادوا أن يعربوه، ألحقوه ببناء كلامهم، كما يُلْحقون الحروف بالحروف العربية)، ويقول الجوهري في الصحاح: (تعريب الاسم الأعجمي: أن تتفوه به العرب على منهاجها).

ومما أخذه العرب من كلام العجم حتى دخل في لغتهم: البستان والمهرجان والتخت والكوسج والإستبرق والقسطاس ونحوها.

وقد اشتمل القرآن على بعض هذه الكلمات المعرّبة، ولم يخرجه

ذلك عن كونه عربيا، بل في أعلى مراتب الفصاحة؛ وذلك لأن اللفظ بعد تعريبه وإخضاعه لأبنية العربية، يصير لفظا عربيا فصيحا.

وفي غير القرآن، وُجدت في الكلام العربي المحتجِّ به ألفاظٌ معرّبة، كالسجنجل (وهو لفظ رومي يعني المرآة) في قول امرئ القيس:

مهفهفة بيضاء غير مفاضة = ترائبها مصقولة كالسجنجل

وكالجُمان (وهو لفظ فارسي يعني الدرة المصوغة من الفضة) في قول لبيد بن ربيعة:

وتضيء في وجه الظلام منيرة = كجمانة البحري سل نظامها

بل إنهم قد يشتقون من هذه الكلمات العربية - مع أن الأصل أن الأعجمي لا يشتق منه - فقالوا مثلا: "بَهْرَجْتُه فتبهرج"، وأصل ذلك من "بهرج" وهو تعريب "نبهره" وهي لفظة فارسية أو هندية. وكما قيل: "فلان يسَفْسِطُ في المعقولات" وهو فعل مشتق من السفسطة، وأصلها من اليونانية.

وفي الزمن الحديث، عُرّبت كلمات أعجمية كثيرة، في مجالات العلوم التجريبية والإنسانية، كالتقنية والتلفاز والإلكتروني ونحو ذلك، كما وضعت كلمات عربية في مقابل بعض الكلمات الأعجمية، كالحاسب واللاقط والهاتف ونحوها.

والمَهيعان مسلوكان، ولهما أصل في فعل العرب قديما، فإنهم لم يلتزموا اختراع كلمات عربية في مقابل الأسماء الأعجمية الواردة، بل قالوا

مثلا - وسياق المنشور في الحلوى والمطعومات ـ: الفالوذج (أو الفالوذ أو الفالوذق) واللوزينج والفانيذ ـ وهي أنواع من الحلوى.

عن «البغرير» ونظائره:

إذا عُلم ما سبق، فإننا نقرر أن العامية خليط من العربية المحرفة، ومن اللغات الأجنبية كالفرنسية والإسبانية.

وعلى هذا، فما كان من الكلمات العامية ذا أصل عربي واضح، فلا إشكال في استعماله كما ورد، ومثال ذلك - في مجال المأكولات دائما ـ: كعب الغزال (أعاننا الله على فتنته، وعلى فتنة كعبه!).

وما كان أصله العربي غير معروف، فيطبق عليه ما يطبق على الكلمات الأعجمية، فيُترك كما هو، أو يعرّب بإخضاعه لأبنية العربية. ومثال ذلك: «البغرير» الذي هو أصل هذا الجدل اللغوي/ الاجتماعي/ السياسي؛ فيبقى كما ورد، ولا داعي لاختراع لفظ عربي يقابله.

ثم الأولى أن يكسر أوله «بِغرِير»، لورود وزن «فِعليل» في كلام العرب، كحِلتيت وغِطريف وشِمليل، بخلاف «فَعليل» بالفتح، فلا يوجد عندهم؛ ولذلك قالوا إن بَرطيل بالفتح عامي، والصحيح بِرطيل، لفقد وزن «فَعليل» بالفتح في كلام العرب.

حقيقة المعركة:

وقد تبين مما سبق أن الإشكال ليس في بضع كلمات معربة أُخضعت لقواعد العربية، وإنما هو في أمور يجب أن تتوجه جهود المدافعة نحوها:

أولها: إضعاف مكانة مادة العربية بين المواد التعليمية الأخرى، وتقديم مواد تعليم اللغات الأجنبية من فرنسية وإنجليزية عليها.

والثاني: ضعف مناهج تعليم العربية، والانتكاس الفظيع في انتقاء المختارات الأدبية، وضمور الدرس النحوي والصرفي والبلاغي.

والثالث: فتح النقاش الاجتماعي عن تدريس العامية (لا فقط عن التدريس بالعامية - كما هو معمول به الآن!) بدلا من العربية الفصحى، وتولي بعض الجهلة المتصدرين لكبر هذه الدعوات الخبيثة، واستغلالهم كل فرصة لزرع البذرة العامية الفاسدة في التعليم والإعلام والفن والأدب..

والرابع: تواني المتدينين - الذين هم آخر حصن دفاعي في مواجهة هذه الحملة المسعورة على الفصحى - وتثاقلهم في خوض هذه المعركة المصيرية، بل مساندتهم غير الواعية لأعدائهم، بتساهلهم في الكتابة بالعامية على مواقع التواصل خصوصا، مع استعمال مبررات فاسدة (سبق لي بيانها في مقالات سابقة).

ومن طريف ما يقع: أن بعض المنكرين على استعمال لفظة «البغرير»، يكتبون إنكارهم بالعامية الصريحة، أو بتراكيب عربية ركيكة هي إلى التراكيب العامية أقرب منها إلى الأساليب العربي الفصيحة!

فاعجب لباحث عن حتفه بظِلفه، وجادعٍ مارنَ أنفِه بكفه!

والخامس: الحملات «التجديدية» لتدمير علوم العربية، ما بين داع إلى تغيير قواعد اللغويين في الاشتقاق والسماع والقياس ونحو ذلك، ومنادٍ بتحطيم «نظرية العامل» التي قام عليها علم النحو، ومهاجم لقواعد

الإملاء العربي قصد «تيسـيرها» فيما يزعم، ومسـتهزئ ببحور الخليل بن أحمد وتفعيلاته وقواعده في العروض والقوافي..

وهذه الحملاتُ تهدد العربية، وتنذر بتدمير البقية الباقية منها بين أيدي النـاس اليوم. ومع ذلك، فالمتصدون لهـا بعلم وعدل، ثلةٌ قليلة مغمورة - جعل الله البركة في جهودهم.

والله الموفق.

العربية أفضل اللغات ..

المحرم 1440

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد

فهذا مقال مختصر في الموضوع كتبته على عجل، دون رجوع إلى الكتب.

وأكسره على محاور، أتناول فيها - بإذن الله تعالى - جميع المسائل التي أثيرت في مقال أخي الصحافي القدير مصطفى الحسناوي، بعد أن طلب رأيي في الموضوع.

في مبدأ التفضيل بين اللغات:

هل توجد لغة هي أفضل من اللغات الأخرى؟

يجيب علم اللسانيات الحديثة: لا، بل اللغات جميعُها متساوية.

ولكن، علينا أن نستحضر أن علم اللسانيات - كغيره من العلوم الإنسانية التي نشأت بعد عصر الأنوار - هو علم متحرر من جميع الاعتبارات الدينية. والذين أدخلوا قواعد اللسانيات من المستشرقين إلى الدرس اللغوي العصري في بلادنا، وطبقوها على العربية، جزموا بأنها تساوي غيرها من اللغات.

لكننا لسنا ملزمين بأن نتنصل من ديننا عند البحث العلمي، سواء في اللسانيات أو في علم النفس أو الاجتماع أو التاريخ أو غير ذلك.

ولذلك فالاعتبار الديني حاضر عندنا بقوة في هذا المقام.

وبيان ذلك أن تفضيل العربية على غيرها من اللغات يكون بأحد سببين: ذاتي أو موضوعي.

فالذاتي: مثل كونها لغة الباحث الأصلية التي تعلمها قبل غيرها، وأتقنها أكثر من غيرها. ولتُسَمِّ هذا السبب "سببا عاطفيا" - إن شئت..

والموضوعيُّ له - في نظري ـ شقان:

الأول: كون العربية لغة القرآن والسنة، ولغة أفضل الخلق، ولغة الصحابة وأكابر العلماء والصالحين عبر قرون عديدة.

والثاني: أن لها خصائص لغوية تميزها، وتجعلها أفضل من غيرها.

وإذا كنت أقول إن العامل الذاتي لا اعتبار له في هذا البحث، فإنني أرَجح العاملَ الموضوعي الثاني، بما سيأتي في موضعه ـ إن شاء الله ـ؛ وأجزم بصحة العامل الموضوعي الأول، إذ لا يمكن أن تكون "لغة خير الكلام وخير الناس"، ليست أفضل من غيرها! وهذا لا يقتضي بالضرورة أن تكون لها خصائص ذاتية، تَفضُل ما لغيرها ـ فإن هذا شيء سنناقشه فيما بعد - ولكن مجرد كونها "لغة خير الكلام وخير الناس" معيارُ تفضيل، بقطع النظر عن الخصائص الذاتية.

وهذا تفريق دقيق، لكنه مهم جدا..

ومن أسباب الغلط هنا: الخلطُ بين العامل الذاتي والعامل الموضوعي الأول، وجمعُهما في سياق ذاتي عاطفي واحد. والحق أن الثانيَ ليس عاملا ذاتيا إلا عند من يرى "النسبية" في الأديان والأفكار..

أما نحن معاشر المسلمين، فأفضليةُ القرآن والسنة على غيرها من الكلام، وأفضليةُ محمد ﷺ على غيره من الناس، أمورٌ موضوعية ثابتة في نفس الأمر، لا بالنسبة لذات معينة. فما ينبني عليها من أفضلية وِعائها اللغوي: موضوعيٌّ أيضا.

في شرط الاطلاع على اللغات كلها قبل التفضيل:

هل التفضيل بين اللغات يقتضي الاطلاعَ على جميعها؟

الجواب: لا، ولكن يكفي الاطلاع على اللغات التي يُمكن أن يَدَّعيَ أصحابُها أفضليتَها، كالفارسية والرومية والهندية قديما، وكالانجليزية والفرنسية والألمانية حديثا. أما اللغاتُ المغمورة، في أقاصي المعمورة، فلا أحد يَطرح فكرة تفضيلها على العربية، فلا حاجة إلى إبطال دليل أو شبهة لا يتبناها أحد من الناس، إلا على جهة الافتراض العقلي، الذي لا اعتداد به في هذا المقام.

وإذا ثبت هذا - وهو ثابت إن شاء الله - فالذين قرروا أفضلية العربية من علمائنا المتقدمين قد اطلعوا على اللغات المشهورة في زمانهم خاصة الفارسية؛ والذين قرروا ذلك من لغويينا وأدبائنا المعاصرين قد اطلعوا على اللغات الأوروبية الحديثة خاصة الانجليزية.

وهذا كاف في مثل هذه الأبحاث؛ واشتراطُ الاستقراءِ "الرياضي" التام، مهجورٌ في العلوم الإنسانية.

في اختيار الله العربيةَ لكتابه العزيز:

نحن نقول: ما اختار الله تعالى العربية لتكون لغة كتابه المعجز، إلا لأنها أفضل اللغات في ذاتها.

وبيان هذا التقرير: أننا إن قلنا بأن اللغات متساويةٌ في الفضل الذاتي، فاختيار البارئ العربيةَ ترجيحٌ دون مرجح، تتنزه الحكمةُ الإلهية عنه.

وإن قلنا بأنها متفاضلة، وأن لغةً غيرَ العربية هي الأفضل، فاختياره العربيةَ حينئذ، اختيارٌ للمفضول، وهو مخالف للحكمة أيضا.

فثبت المقصود، وهو أن اللغات متفاضلة، وأن العربيةَ أفضلُها.

وبه يُعلم سؤال السائل: هل يعجز الإله أن ينزل قرآنا معجزا بالصينية مثلا؟

والجواب: لا يعجزه شيء، لكنه سبحانه ليس يفعل كل ما يقدر عليه، بل يفعل بمشيئته سبحانه، وله في أفعاله الحكمة البالغة، التي نفهم منها ما تُمكّنُنا عقولُنا أن نفهمَه.

في العلاقة بين اللغة والحضارة:

هل اللغة تزدهر بفعل التقدم الحضاري للناطقين بها؟

نعم دون شك.

لكن..

ليس هذا السبب الوحيد، وإلا لكان الارتباطُ مطّردا بين التقدم الحضاري وازدهار اللغة، وليس الأمر كذلك، بل ما أكثر ما يوجد الأول ويتخلف الثاني.

فإن قُصِد بالتقدم الحضاري الرفاه وطيب العيش، فما بال اللغة السويدية مثلا مغمورة مطمورة؟

وإن قصد به الإبداع الثقافي والأدبي والفكري، فأين اليونانية والهندية والفارسية اليوم، وهي لغات تكلمت بها أرقى الحضارات القديمة؟

وإن قصد به الهيمنة العسكرية والانتشار بالغزو، فأين البرتغالية ولغات التتار والمغول وقبائل الهون وغيرها؟

وإذن ليس صحيحا أن اللغات لها نفس الخصائص ونفس حظوظ الانتشار، فمتى وجد التطور الحضاري انتشرت؛ وإلا فلِمَ لَمْ تنتشرْ هذه اللغات؟

(من المعلوم: أن الغزاة - في أحيان كثيرة - يتبنون لغات البلاد التي يحتلونها. فما السبب يا ترى؟).

في الخصائص الموهومة:

نحن نعتقد أن للعربية خصائص ذاتية تجعلها أفضل اللغات تحقيقا لا ادعاء.

ولكن اختلاط الحابل بالنابل، وكثرة كلام الناس في ما لا يحسنون، جعَلَ الكثيرين يتسوّرون هذا المقامَ الاختصاصي السامي، ويأتون

بخصائص موهومة، يكون أثرها على المتلقين عكسيا، فيسيئون من حيث يحسبون أنهم محسنون صنعا!

- من ذلك ما رأيته في مقطع مصور لأحد الفضلاء يستهزئ فيه باللفظ المقابل في الفرنسية لـ"ثمانين وتسعين"، وهذا منقوض في مجال الأعداد نفسها بقول العرب "أحد عشر" حيث يقول الفرنسيون "onze"! والتحليل نفسه في المقامين.. فكيف لو خرجنا عن الأعداد إلى غيرها؟!

فما أشبه هذا بالحديث عن لفظ "news" في مقال الأستاذ الحسناوي: كلاهما صالح في مجال الطرفة لا في ميدان البحث الجاد.

ولن يعجز المخالف في مجال الخصائص الموهومة هذا، أن يأتي بأمور تتفوق فيها لغات أخرى على العربية. ومَن مارس مجال الترجمة إلى العربية، في مجال الإنسانيات خصوصا، علِم حجم المعاناة في إيجاد مقابل عربي لكثير من الألفاظ المستحدثة عند الغربيين، خاصة حين يستعملون السوابق ذات الأصل اللاتيني (préfixes) مثل:

Extra /post /anti /pro /intra

أو بعض اللواحق (suffixes) مثل: ـisme، التي يحار المترجمون فيها، إلى درجة اختراع أوزان لا وجود لها في العربية (كالعلموية لـ scientisme والفردانية لـ individualisme)..

وليس هذا نقصا في العربية، وإنما هو خلل شديد في آليات التعريب، المعمول بها عند المجامع اللغوية في العصر الحديث، والتي تجعل العربية تراوح مكانها، بدلا من استيعاب الكلمات الأعجمية، وإخضاعها لأوزان

العربية، واستعمال الأدوات الاشتقاقية الهائلة التي تتيحها العربية، خاصة آلية النحت.

ولتفصيل هذا المبحث مقام آخر، ولكن المقصود أن المقارنة بين اللغات لا تكون بطريقة: "هذه الكلمة الصغيرة في لغتي، يعبر عنها بكلام طويل في اللغات الأخرى؛ إذن لغتي أفضل!".

في الخصائص الحقيقية:

وقبل بيان بعض هذه الخصائص، فقد وقعت الإشارة في مقال الأستاذ، إلى مبحث شريف القدر، بعيد الغور، دقيق المنزع، هو مبحث القيمة البيانية للحروف العربية..

وقد دلت دراسة المادة النحوية الصوتية أن لكل حرف صوته من جهة المخرج والصفات، وأن هنالك نوع مناسبة بين الحروف العربية ومعانيها، فكأن الحرف ليس لبنة صوتية "محايدة" في الكلمة، يمكن أن يقوم غيرها مقامها، وإنما هو صوت معبر بذاته عن غرض.

وقد ذكروا لذلك أمثلة كثيرة (كالخضم والقضم)، وتفننوا في استنباط اللطائف الفريدة (كالعلاقة بين أصوات الحيوانات والمظاهر الطبيعية، وما وضعت لها العرب من الأسماء).

والحق أنني أنبِّل هذا المبحث العظيم، عن أن أتناوله في هذه العجالة!

أما الخصائص فأذكر هنا أبرزها، دون تفصيل - فقد طال هذا المقال، حتى قارب حد الإملال ـ:

- ظاهـرة الإعراب، الـذي كان موجودا في اللغات السـامية، وفُقد من أكثرها. وهو وسيلة ظريفة لتحديد الوظيفة النحوية.

- الاشتقاق - بأنواعه: الأصغر والكبير والأكبر، مع النحت -: وهو آلية تتيح ثراء معجميا ضخما، لو أُحسن استعماله!

- الثـراء اللفظـي، ومنه الـترادف والتضاد، وفي ضمـن هذين فقط - فضـلا عـن غيرهما - بحـر غطمطم مـن اللطائـف والفرائد، والفروق والنظائر.

- الجمـال البلاغـي، في التشـبيه والاسـتعارة والكنايـة والإيجاز والإطنـاب والحصر وغيرهـا، مما تتابع الأدبـاء على المتح من نميـره العذب، فما زاد إلا تدفقا. ومقابلُ هذا في اللغات الأوربية ضامر هزيل!

- التنـوع في أوزان الشـعر وقوافيـه. والناظـر في أوزان الشـعر في اللغات الأوروبية، يجزم بالتفاوت الضخم.

وتفصيل هذه الجُمل يطول حتى يحصل المَلام، ويتشـعب في شجون الحديث وأودية الكلام.

والله الموفق.

المحتويات